مُقَدِّمَة

في نشأة اللُّغَة والنَّحو

والطَّبَقات الأولَى مِن النُّحَاة

محمود محمد شاكر

قرأها وعلق عليها:

عبد الحميد محمد العمري

تصدير

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ۝١ قَيِّمٗا ﴾ [الكهف: ١]، كتب على نفسه الرحمة، فعمت رحمته جميع خلقه، ويسر لكل مخلوق رزقه.. سبحانه، هو﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤ ﴾[الرحمن: ٤]

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد، أشرف المرسلين، وسيد الأولين والآخرين، أفصح العرب، وخير من وطئت قدمه الثرى، وهدى الله به الورى، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه واستن بسنته- وسلم تسليما إلى يوم الدين.

ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به، اللّٰهُمَّ اجعلنا من عبادك الصادقين، الصالحين العاملين في سبيل هذه الأمة وخدمة هذا الدين. ربنا إنا مخطئون فتجاوز عن سيئاتنا، مفرطون فاغفر لنا واستر عيوبنا يا رب العالمين.

اللّٰهُمَّ إنا فقراء إليك فأغننا، واغفر لنا وارحمنا.

وبعد: فهذه "مقدمة في نشأة اللغة والنحو وطبقات النحاة"، أنشأها شيخ العربية وفارسها محمود محمد شاكر (١٣٢٧-١٤١٨هـ/ ١٩٠٩ – ١٩٩٧م) –رحمه الله– في ريعان شبابه، ونشرها تصديرا للطبعة الأولى من تحقيق الشيخ محيي الدين عبد الحميد لشرح العلامة الأشموني على ألفية ابن مالك، وقد صدرت الطبعة الأولى من هذا التحقيق عام ١٣٥٢هـ- ١٩٣٣م، وعمر الشيخ لم يتجاوز الرابعة والعشرين يومئذ، ولكن فيها من أنفاس محمود وفكره وعلمه وهو في ريعان الشباب شيئا كثيرا، فهو الذي أخرج بعد ثلاث سنوات كتابه العظيم "المتنبي"، وهو أعظم ما كتب عن شاعر العربية الأول، ثم هو أول كتاب ظهر فيه منهج "التذوق" - الذي استخرجه الشيخ- كاملا قائما على سوقه.. وأنت واجد في هذه المقدمة ملامح ظاهرة من التذوق، وواجد فيها إذا تأملتَ صورة من صور التذوق في سياق مختلف عن سياق تذوق الشعر/ يبحث في النحو وتاريخه والنحاة وطبقاتهم = لعلها أولُ ما ظهر فيه أثر المنهج وصرامته وقوته وإحاطته.

وهي مقدمة نفيسة متينة، خلع الشيخ/ الفتى عليها يومئذ من نفسه وفكره وعقله، فجاءت ناظمة لجواهر من فكره يومئذ وعقله، تريك إذا أنعمت النظر فيها طريقا لاحبا ورؤية واضحة ومنهجا مستتبا، يقدم لنا صورة منهج التذوق في خطواته الأولى بعد أن استحكم واستوى على سوقه أو كاد.

وقد طبعت "المقدمة" في صدر الطبعة الأولى لشرح الأشموني، ثم حذفت من الطبعات التالية من غير سبب واضح معروف، إلا أشياء يذكرها بعض المهتمين وينسبونها للشيخ محيي الدين لم أجد لها ما يدعمها ويجعلني أطمئن إليها.. وليس يهمنا الخوض في أمر حذف المقدمة، بقدر ما يهمنا أمر المقدمة في ذاتها، وأمر نشرها بين الناس بعد أن ظلت حبيسة الطبعة القديمة لأكثر من ثمانين عاما، فهذا خير جواب عن سؤال عدم نشر المقدمة بعدَ الطبعة الأولى.

فقد صار نشر المقدمة أمرا ملحا اليوم لأمرين اثنين، أحدهما: تمكينُ محبي الشيخ ودارسي منهجه من الوقوف على مرحلة مهمة من مراحل بناء منهج التذوق، تساعد الباحث على بناء تصور

شامل مستوعب للمنهج بما تتيحه هذه المقدمة وما تبوح بـه مـن أسرار المنهج وخطواته ومسـالكه، وبمـا يفتحـه هـذا النمـط مـن البحث في منهج التذوق مما يؤكد مقولة الشـيخ –رحمـه الله- بـأن التذوق "منهج حياة" وليس منهجا لدراسة الشعر فقط، ففيه القـوة والقدرة الكافية للوصول إلى نتائج باهرة في قراءة الشعر ونقده، وفي البحوث التأصيلية للعلوم والآداب، بل إنه يتجاوز هذا إلى مختلف مناحي الحياة، ما دام قائما على تحـري "الإحسـان والإتقـان" في كل عمل يقوم به، حتى يبلغ مبلغا يمـزج فيـه بـين "العمـل" و"الفـن" فيتفنن في كل عمل يقوم به، ويلتذ بتعبه، ويستمتع بالجهد يبذله في سبيل عمل يعالجه، لأنه – أعني منهج التذوق- مؤدٍّ في النهايـة إلى العودة بالإنسان إلى فطرته الأولى التي فطره الله عليهـا، فلمـا زاغ عنها وحاد تحير وتعذب..

وثانيهما: حاجة طلبة العلم في الجامعة –وغيرها- إلى مثل هذه المقدمة التي تجمع شتات علوم يبذلون جهـودهم في تحصـيلها ولَمِّ أطرافها؛ ثـم لا يظفـرون بطائـل.. فـإنهم بـين كـثرة المصـادر والمراجع التي لا تزيد طلبة اليوم إلا حيرة ونَصَباً، وبين اختيـارات

الأساتذة ومختصـــراتهم الـتي تعنـتهم، ولا تزيـد المـادة إلا إبهامـا وتعقيدها، ولكنها في النهاية تعلم الطالب طريقا واحدة في المعرفة غير مفتوحة على طرق أخرى =ربما كان غيرها من الطرق أجـدى وأنفع..

وهذه المقدمـة قائمـة على نمـط مختلـف مـن الاختصـار والتلخيص، وتفتح أمام الباحث آفاقا للبحـث والتوسـع ومناقشـة آرائها والوقوف على مـا ينـبغي الوقـوف عليـه مـن مـا تثـيره مـن إشكالات وما تقترحه من حلول لأمور كثر فيها الجـدل بـين أهـل العلم فلا يفضي البحث فيها –في الغالب- إلا إلى الضلال والتيه.. وإنها – أعني هذه المقدمة- لتضع الطالب في بداية الطريق وتزوده بزاد يتقوى به ويستعين به على وعثاء السـفر، ثـم تـترك له القيـاد، وتجعله حرا في اختيار طريقة سيره، واضـعةً له صـوى في الطريـق/ يهتدي بها وتحفظه من الضلال والزيغ. وعلى هذا الأساس ينبغي أن تكون المختصرات التي تقدم لطلبة العلـم، لتضـعهم على طريـق العلم، أما مختصرات أغلب الأساتذة اليوم فإنها تغلق الأبواب دون

الطلبة، وتفتح نفقا ضيقا صغيرا يراه السالك كلَّ شيء، ويتعذب في السير فيه فإذا بلغ نهايته لم يجد له مخرجا..

ولقد عملتُ في قراءة هذه المقدمة وتصحيحها والتعليق عليها =على جملة أمور لا بدَّ منها لإخراج طبعة جديدة على أحسن وجه، وتقديمها لطلبة العلم والدارسين ومحبي شيخنا في حلة تليق بقيمتها وقيمة كاتبها، سائرة على منهجه في "القراءة" ما استطعتُ إلى ذلك سبيلا، فمن ذلك:

- تصحيح الأخطاء المطبعية: فقد وقعت في الطبعة الأولى من شرح الأشموني أخطاء مطبعية لم تسلم منها المقدمة، فعملتُ على تصحيحها وتصويبها ما وسعني ذلك.
- عزو النصوص إلى مظانها حتى يتمكن القارئ من الوقوف عليها وتتبع القضايا التي تعالجها هناك ، ولم يقم الشيخ بهذا إلا في مواضع قليلة، على أن الشيخ –رحمه الله- لم يكن يحفل بهذا كثيرا في كتاباته إذا اطمأن إلى النصوص وإلى صحتها، ولكنه كان يهتم بالأمر في إخراجه لكتب التراث اهتماما

غير مبالغ فيه؛ يدلك على أصول النصوص للرجوع إليها، وعلى هذا سرتُ في هذا العمل.

- التنبيه على بعض ما ورد في البحث مما له علاقة بغيرها من كتب الشيخ رحمه الله، تيسيرا للفائدة، ومدا للجسور بين كتب الشيخ رحمه الله التي تربط بين مواضيعها حلقات متصلة، ولا يكون تمام استيعابها وفهمها إلا بضم بعضها إلى بعض.

- العناية بعلامات الترقيم: على خلاف سائر كتب الشيخ رحمه الله، فإن "المقدمة" جاءت خالية من بصمته في ترقيم فقراتها وجملها، بل إن الأخطاء المطبعية امتدت إلى علامات الترقيم فأثرت في المعاني في بعض المواضع. فعملت على إعادة النظر في نظام الفقرات والجمل، ساعيا في ذلك إلى السير على خطى الشيخ رحمه الله.

- ترقيم الفقرات: قمتُ بترقيم الفقرات تيسيرا للربط بين مواضيعها، وتسهيلا للرجوع إلى مواضع النصوص والاستدلال بها في مواطن لاحقة.

ولا أنسى أن أشكر أساتذتي وشيوخي وأصدقائي الذين تفضلوا بقراءة عملي في هذه "المقدمة"، ولم يبخلوا علي بتوجيهاتهم وملاحظاتهم التي كان لها أثر كبير في خروج هذا العمل على هذه الهيأة التي تجعلني أرضى عنه وعن جهدي فيه بعض الرضا. فإن كتب له القبول وكان لائقا بمنزلة الشيخ ومكانته فالفضل لله وحده، له الشكر وله الحمد، وإن قصرتُ عن ما أمَّلتهُ، فمن ضعفي وقلة حيلتي وكساد بضاعتي، على أني أطمع أن يشفع لي حبي للشيخ وإخلاصي له، وأن يخفف من ثقل الإساءة -إن كانت- سعيي لنشر علمه وانتفاع أبناء هذه الأمة به.

﴿ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾

عبدالحميد محمد العمري

[نشأة اللغة][1]

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله، والصَّلاة والسَّلام على رسول الله.

١- أترى لو أنَّ أحدَنا التَمسَ من هرَّته الإفصاحَ عن العلَّة في إصاختها حين تسمعُ صوتَ صاحبِها إذ يُناديها باسمها الذي اجتَباه لها، فما يكون جوابها؟

٢- لا يُداخلنَّك شَكٌّ في أنَّ الهرَّة لم تفهَمْ من نداء صاحبِها ما يفهَمُ هو من معاني النِّداء، بل كل شأنها حين تصيخُ في دُربةِ أعصاب أذنها، وَتَعَوُّدِهَا حَرَكَةً خاصَّةً دربت بها على التَّكرار والإعادة والمراجعة، وذلك أنَّ مَسامِع الهرَّة كمَسامع كلِّ حيٍّ تصيخُ للصوت والنَّبْأة حين تلقفُهُما الأذن، فإذا ما التَفتَتْ رأتْ في حركة وجه المنادي ونظرته وإشارته ما تفهَمُ به غريزةً أنَّ هذه كلَّها من

١- أضفنا العنوان، ولم يكن في الأصل، ولكنه أثبت في ترويسة المقدمة في الصفحات اللاحقة.

معاني النِّداء الذي يُطلَب به الإجابة، فهي في المرَّة الأولى والثانية تعيرُه سمعَها، وتمنحه بصرَها، وتكاد تفقَهُ معنى إشارته لها بالمَجِيء إليه، فلا يَزال هو يلحُّ عليها، ولا تَزال هي تطمئنُّ إلى إشارته، وتتدرَّب على نِدائه، حتى تَنقاد لذلك أعصابُ السمع، ويَهدِيها المقدار المشترَك من الفَهْمِ في الحيوان كلِّه إلى الحركة نحوَهُ، فما يُنادِيها بعدُ بما تعوَّدت عليه أُذناها من النداء إلا أجابَتْه سمعًا وطاعةً.

٣- وكذلك الطفل حين ينمو على الأيَّام.. فهو لا يزال يسمعُ الكلمة إثْر الكلمة من أمِّه وأبيه وعَشِيرته التي تُؤويه لا يفهَمُ لها معنى، وليست عنده إلا أصواتًا مُبهَمة لا يُفرِّق بين صوتٍ منها وصوتٍ، حتى إذا بلَغ مبلغًا يظنُّ أهله أنَّه بَدْءُ انتِباهِه إلى الألفاظ والأشياء والمعاني، أخَذُوا يَنطِقون له اللفظ مُشِيرين إلى الشيء الذي تقعُ عليه عَيْناه مرَّة بعد مرَّة، فبذلك تبدأُ أذنُه في التدرُّب على هذه الأصوات، وتشتركُ العين مع الأذن في إدراك الشيء المشار إليه والتنبُّه له حين حُدوث هذا الصوت بعَيْنِه، فالطفل لا يكاد

يعرفُ هذه الألفاظ ومَعانيها بديًّا [٢] إلا مقرونة في ذِهنِه بالإشارة إلى الشيء الذي تدلُّ عليه الكلمة أو المعنى الذي يُراد له اللفظ.

ولا يَزال يترَبَّى على ذلك حتى يبلُغ درجةً من العلم بمنطِق الحروف، ثم لا يفتأ يُقلِّد صَوابًا وخطأ حتى يَنقاد على الزمن ما تَعاصَىَ عليه أولاً، ولا يَكاد يفهم من الكلمات التي دَرِبَتْ بها أذناه إلا ما أُرْسِلَتْ عليه من الأشياء أو المعاني الأُولى التي اقترنت في سمعه بصُورة ما أُشير إليه في عَيْنيه، ويَبقَىَ الطفل كذلك إلى مدى قبل أنْ تتنبَّه فيه القوَّة الإنسانيَّة العالية: قوَّة إدراك ما يحسُّ وما لا يسمع وما لا يرى، فإذا ما تنبَّهت فيه هذه القوَّة بدأ يُغنِي عن اقتران الإشارة بالأصوات المسموعة من مخارج الكلام، وبدَأ

٢- البدي (بالتشديد): الأول، ومنه قولهم: افعل هذا باديَ بديٍّ، أي أول كل شيء. (اللسان).

يُراقِبُ فيما يرى وما يسمعُ وما يحسُّ خَصائص يهتدي إليها بفِكره وعقله تقوم لديه مقام الإشارة في فهمه الأوَّل. (٣)

٤- ثم لو أنَّـك ترَكْـتَ جماعـةً مـن الـنَّشْءِ الصـغار وحدَهم وأمهَلتَهم زمنًا يطولُ أو يقصـر، ومنعت تسـرُّب أحاديـث الناس إلى آذانهـم = لرجعـتَ إليهـم وقـد أحـدثوا لمـا تقـعُ عليـه أبصارهم من شيءٍ ألفاظًا يُعـبِّرون بكـلِّ واحـدٍ منهـا عـن شيءٍ بعينِه، وهذه الألفاظ إمَّا أنْ تكون حكايةَ صوتٍ أو تمثيلَ شكلٍ أو تقليدَ حركةٍ إلى غير ذلك من أساليب التعبير، ولـو أنَّـك انتزعـت الهمَّة لمراقبة هؤلاء الصِّغار في وطنهم هذا لرَأيتَ أنَّ ما يُحدِثونه من الألفاظ يجري اللفظ منها على لسان أحدهم مرَّةً وأخرى ولا يـزال يُبدِئه ويعيدُه على أسماع أترابه وهم يُقلِّدونه ويُحاكونه حتى تنذلقَ به ألسنتهم وتلينَ له حَناجرهم؛ فمن ثَـمَّ يجـري هـذا بيـنَهم لفظًـا

٣- يتصل بهذا الحديث حـديث "الإبانـة" و"الاسـتبانة" و"البيـان" الذي فصـل فيـه الشيخ في مقالاته الثلاث "المتنبي ليتني ما عرفته"... وهي عماد مـنهج التـذوق عنـد الشيخ، والمقالات منشورة في جمهرة مقالات الأستاذ محمود محمد شاكر، الـتي جمعهـا عادل سليمان جمال، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط ٢، ٢٠٠٣، ج ٢، ص ١٠٩٣ – ١١٨٩.

موضوعًا لمعنى خاص أو شيء بعينِه، ولا شَكَّ عندنا أنَّ هذا النـوع من التعبير ممَّا يُهدَى إليه الطفـل إلهامًـا وتوقيفًـا لا اجتهـادًا ولا مُواضعة.

٥- فدربة أعْصاب السَّمع على أصواتٍ بعينهـا تشـيرُ إلى أشياء أو تدلُّ على مَعـانٍ، ولـزوم الحاجـة إلى الإشـارة إلى هـذه الأشياء أو الدلالة على هذه المعاني هي الدرجة الأولى في نَشْـأة اللغـة على ألسنة البشر.

٦- فعلى هذا الأساس نرى أنَّ اللغـة الأولى للإنسـان كانت قليلةَ الحروف بسيطة التركيب، مصـحوبةً بالإشـارة للدلالـة على الشيء الذي أُرسِل عليه اللفظ، فلما أرادت حاجـةُ الاجتمـاع أنْ تمدَّ من هذه اللغة وتبسط، انتقصت مـن الحاجـة إلى الإشـارة واستبدَلت مَكانها تخالُف الأصـوات على الحـرف الواحـد بـانفِراج الفم وزمِّ الشفتين وفتحهمـا ومـدهما وتحريـك اللسـان وتقليبـه وموقعه من الأسنان، فلمَّا أحدث الاجتماع حاجةً إلى المد والبسط أكثر من ذي قبلُ، كانت قد نشَأتْ في الألسنة مُرونةٌ تأتَّتْ لهـا مـن كثرة تقليبها وتحريكها في الفم؛ فساعدت هذه المرونة على إنشـاء

حروف كثيرة مُتقاربة المخارج لا يُمَيِّزُ بعضَهَا من بَعْضٍ إلا الجَرْسُ في خَفائه ووُضوحه وموقع اللسان من الثَّنايا والأسنان وغار الفم.

٧- ولعلَّ هذه الحروف الأولى التي لا نعرفُها ولا نعرف عددها [٤] كانت هي الألفاظ التي يدلُّون بها على المعاني ويُومِئون بها إلى الأشياء، ثم تدرَّجَ ذلك على الأيَّام حتى رُكِّبَ الحرفان والثلاثة لأشياء حدَثَتْ ومَعانٍ وقفوا عليها وأرادوا التعبير عنها .

٨- وهنا اختلف العلماء اختلافاً كبيرًا في نشأة اللغة على الألسنة الإنسانيَّة، فرموا الحجَّة بالحجَّة، واستفتَحُوا أبوابًا من الجدل في أمرِها؛ توقيفٌ هي أم اصطلاح، فذهبت بهم ألسنتُهم

٤- ولا تزال الدلالة على شيءٍ أو معنى بالصوت أو الحركة أو الحرف الواحد مستعملةً معروفةً في لغات القبائل من همج إفريقيا وغيرها، ومن هذا البابِ انتهى الإمامُ أبو الفتح عثمان بن جِنِّي إلى القول بأنَّ الحروف تدلُّ على المعاني، وقد عقَد لذلك فُصولاً في كتابيه: "الخصائص"، و"سر العربية"، ونقل عنه من ذلك الباب كثيرٌ. (شاكر)
قلتُ (العمري): وقد بدأ الشيخ رحمه الله مقالات في علم معاني أصوات الحروف، ولم يتمها.. منشورة في جمهرة المقالات (الجزء ٢، ص ٧٠٨ – ٧٣٤) وفيها فوائد عظيمة لمن تأملها ووقف على أسرارها.

مذاهب تستقيمُ تارةً وتلتوي أخرى، وانتهوا إلى مَجَاهِل من القول لا يهتَدِي فيها دليلٌ، وما خرَجُوا منها إلا بالقوَّة على الجدل، والقُدرة على تشقيق الكلام وترقيعه وتلفيقه.

والرأي عندنا أنَّ نشأة اللغة لا بُدَّ أن تُرَدَّ إلى ما تُرَدُّ إليه أصولُ العلوم الإنسانيَّة كلها من طبيعة النُّبوغ في فردٍ من الأفراد أو أفراد من الجماعة، ولا يفوتنَّك هنا أنَّ النُّبوغ إلهامٌ ولا شَكَّ، وأنَّ هناك معانيَ تتَساقَطُ على عقلٍ يُشرِقُ في ظلام زمنِه بما سُوِّغَ من دِقَّةٍ في التركيب، ورقَّة في الإحساس، وقُدرة على التعبير، وأنَّ هذه المعاني لا يُجُدِي في إيجادها استِجلابٌ ولا تحصيلٌ ولا حشْدٌ، ولا تحسبنَّ أنَّ النُّبوغ هذا لا يكون إلا في مَعاني الشعر أو آراء الفلسفة أو أحكام العلوم، بل النُّبوغ إشراقٌ في الإنسانيَّة يُوضِّح لها ما لم يكن واضحًا، ويهديها إلى ما كانت عنه من ضَلالٍ مُبِين، فالاهتداء إلى لفظٍ واحد جديد للتعبير عن شيءٍ كان مهملاً لا لفظَ له في طفولة الإنسانيَّة؛ كالاهتداء إلى سِرِّ سقوط الأشياء من أعلى إلى أسفل بالجاذبيَّة في عصر شَباب العلم.

٩- فآدم التَّوابغ حين كان في الأرض ورأى وأحسَّ وفكَّر، أشرقتْ عليه معانٍ بقَدرِها، وأُلْهِمَ التعبير عنها بما يُسِّرَ له، فنطَق باللفظِ المبتدأ المرتَجَل الذي أُلقِيَ إليه إلهامًا لا اجتِهادًا واعتِمالاً، وحمل هذا اللفظ قوَّة مُستبدَّة من رُوح النابغة إلى مَن سمع منه وأشرق نُبوغه على الشيء الذي يبتغون التعبيرَ عنه، فلزمهم تقليدُه، وانصاعوا فنطقوا بما نطَق به محاكاةً لا إرادةَ فيها إلا قليلاً.

١٠- فاللغة على ذلك إلهامُ فردٍ مُرهفِ الحسِّ، مُشرِق العقل، دقيقِ التركيب، قويِّ الروح، مهيَّأٍ للتأثير في غيره تأثيرًا كبيرًا، وكأنَّ هذا النابغة حين ينطقُ بما أُلقي في روعه من اللفظ المعبِّر عن الشيء أو عن المعنى المقصود = يُوحِي إلى سامِعِيه استعمالَ هذا اللفظ؛ فيَنقادون غريزةً وضَرُورةً إلى مُجاراته ومُحاكاته طائعين[٥]. وأنت ترى الشاعر الكبير حين يُعبِّرُ عن شيءٍ الناسُ

٥- واعلم أنَّ النابغة يملكُ قوَّة مُدبِّرة مُصرِّفة لا يُقاومها شيءٌ، تغلب الناسَ من أهل عصره أو بعد عَصرِه، على هواهم، وتجري بهم من مَذاهب المعاني والألفاظ =

يحتاجون إلى التعبير عنه، ويكون تعبيره هذا قويًّا جَذَّابًا مُستحكمًا، لا يلبث أنْ يَعلَقَ هذا التعبير بذهن كلِّ مَن قرأه ثم يجري على الألسنة اقتِدارًا حتى يذيع ويُصبِح بمكانٍ من اللغة مُشرفًا واضِحًا زمنًا يطولُ أو يقصرُ، ولا يجد أهل العصر على ذلك مندوحةً من إرساله في كَلاَمهم وكُتبهم ورسائلهم، وما يمسُّه من شُؤون حَياتهم واجتماعهم، فهذا هذا كما ترَى.

=

والأساليب والعلوم بتصريفٍ عجيب وتدبيرٍ غريب، حتى تصلَ بهم إلى غايةٍ منصوبة، ولا يملك أحدٌ عن ذلك معدلاً ولا محيصًا، فكان عقلُ النابغة من هؤلاء بمنزلة المُوحَى إليهم يُلهِمهم بما يُسِّرَ؛ فلا يجدون بُدًّا من التصرُّف معه إلى غايةٍ لم يكونوا انتهَضُوا لها ولا أرادوها، وتلك هي العلَّة في أنَّ الناس يعتنون برجلٍ منهم كبير العقل صافي النَّفس قوي الأثر؛ حتى يُصبح خطأه الكبير فوق صَواب الناس، فيَأخُذون به مُسَلَّماً ثم إذا عُوتِبوا فيه أخَذوا يُولِّدون له كلَّ علَّةٍ من كلِّ شيء ولا يرون في كلِّ علةٍ إلا صوابًا فوق الصواب، وحقًّا يعلو على كلِّ حقٍّ: حتى يأتي العصر الذي يشرق فيه عقلٌ آخَر يزيفُ ما صحَّحوا؛ فيصرفهم عمَّا كانوا فيه من عماية وضَلالٍ، وهذا مرض قديم في العقل الإنساني، لم يبرأ منه مرَّة واحدة على مَدارج التاريخ كلها. (شاكر)

١١- ولا يَذهَبَنَّ عنك بعدَ ما رأيت أنَّ اللغة إنما هي أداةُ التعبير [٦] التي يتخذها كائنٌ حي في الإشارة إلى شيءٍ، أو الإفصاح عن غَرَضٍ، أو الدعاء في طلب، أو الإعراب عن ضمير نفسه بما يجولُ فيها، فهي على ذلك تجمعٌ الإشارة بالجوارح أو الأعضاء من تلويحٍ بيد أو إيماءٍ برأس أو تقطيبٍ أو اهتزاز أو تصويت أو منطق، هذا عندنا هو الأصل في المعنى الذي تُراد له "اللغة"، ثم قام هذا اللفظ "أعني اللغة" للكلام المنطوق المركَّب من أحرُفٍ على هيئةٍ بعينها، وتتألَّف من هذه الأحرف كلماتٌ على أوضاعٍ تخصُّ بها، تدلُّ على مَعانٍ تختلفُ باختلاف التركيب والوضع.

١٢- قلنا: إنَّ أداة التعبير الأولى إنما هي من آثار النُّبوغ في فردٍ من الأفراد، وتساوق النبوغ بعدُ في إحداث ما يُعبِّر به عمَّا يرى وما يسمعُ وما يحسُّ؛ فتكاثرت "الكلمات" التي يُعبَّر بها عن الأشياء والمعاني، وتصرَّمت الأجيال على نماء أدوات التعبير

٦- في الأصل "أداة للتعبير"، ولا يستقيم الكلام هكذا، فهو خطأ مطبعي.

وزِيادتها، ثم تصرَّمت الأجيال ورأينا لغات مُتَقاربة أو مُتَباينة، ثم تصرَّمت الأجيال وقُيِّدَت هذه اللغات ووضعت لها ضَوابط وقَواعد، واختصَّت كلُّ لغةٍ في جِيلٍ من الناس وأمَّةٍ من الأمم بقَواعد وأُصول تختلفُ اختِلافًا جَليلاً أو دَقيقًا عن سائر اللُّغات التي تُعاصِرُها أو تُجاوِرُها.

١٣- ونحن لا نَشُكُّ في أنَّ اللُّغة من هذه اللغات نَمَتْ في أحقابٍ مُتَطاوِلة إلى أنْ كانت لها قَواعد وضَوابط وأصول يُرْجَعُ إليها، فلو رجَعْنا هنا إلى القول الذي قلنا به في نشأة اللغة من طبيعة النُّبوغ في فَرْدٍ من الأفراد، أو أفرادٍ من الجماعات = لاعتَرَضَنا مُعترِضٌ بالشُّبهة في هذا القول والشك في أمره؛ إذ كيف يتَّفق طبيعة النُّبوغ في أفرادٍ من أمَّة على تطاوُل الأحقاب اتِّفاقًا مصمتًا يكون من أثَره أنْ تقعَ أنواع الكلمات في هذه القواعد والضوابط ولا تتعدَّاها؟ ويلزمنا لذلك أن نقول بأنَّ القواعد قد تواضَعَ الناس عليها أولاً ثم صاغوا لها الكلمات والأساليب.

١٤- أمَّا تواضُعُ الناس على القواعد والأصول قبلَ أنْ تكون لغةٌ يتَفاهَمون بها فهذا مُحالٌ لا يقول به أحدٌ، فلم يبقَ

أمامَنا إلا أنْ نعرفَ كيف اتَّفق هذا في اللغات التي دَرَسَتْ ولم يبقَ منها إلا آثارٌ وأطلالٌ، وأيضًا في هـذه اللغـات الـتي تحيـا إلى اليـوم متَّخَذَة أداة للتَّفاهُم والتراسُل والتعليم والتعلُّم.

١٥- لا شكَّ أنَّ الكلمات الأولى التي أُلقيت على لسـان فردٍ من الجماعة، ودَعَتِ الناس إلى تقليدها ومحاكاتها بـالنُّطق قـد جعلت في ألسنتهم مُرونةً وليانًا ومطاوعة، فلمَّـا اشـتدَّت الحاجـة بالناس إلى التعبير أو الإشارة لم يجدْ بعضـهم محيصًـا عـن تقليـب الأحرف التي عرَفُوها على ألسـنتهم بالتقـديم والتـأخير؛ فأحـدَثُوا ألفاظًا مشابهة لـلأولى في بنائهـا، ولـم تُـواتِهِمُ الألسـنة والطبـائع الناشئة منهم بالاعتِياد والتَّكْرَار على مُخَالَفة الأوزان والصِّيَغ الأولى التي طالَ عهدهم بهـا، فمَرُنُـواْ عليهـا، فلمَّـا ظهَـر بينـهم العقـلُ المشـرِقُ الجديد كان قد تلقَّن في نَشْأته أصـول لغتـه -أيّـاً كانـت- بالعادة والمِرَان، واستَقام لسانه عليها، فلمَّـا أشرقـت عليـه أنـوار النُّبوغ اعتمد نبوغُه على التوليد من الأصول التي استوضحها عقلُه الرحب وأدركها حسُّه المرهف، ووزنها وميَّزهـا بعضَـهَا مـن بعـضٍ تركيبُه الدقيق، فكان يكثُرُ منه اتِّفاق ما يحدث من الأبنية والصيغ،

مع ما نشأ فيه ودرَج عليه وجاء من بعده أتْباعُه يزيدون على أصوله وفروعه لا يكادون يخرُجون عليها، حتى يأتيهم مَن يُلْقُونَ إليه بالمقادة في أمر لسانهم وتفكيرهم، فمن هذا ترى أنَّ الاتِّفاق شيءٌ غير بدعٍ في أمر الألسنة الإنسانيَّة.

١٦- ولا يفوتك أنَّ هذا هو الشأن من بعد تفرُّق الجماعات في الأرض على اختلاف طَبائعها وأجوائها وتغيُّر طبائع الناس وعاداتهم وحاجاتهم تبعًا لتغيُّر أرضهم ومنازلهم... استمرَّت الحال على ذلك حتى استَقرَّت بعض اللغات على طرازٍ خاص؛ إذ ضُبِطت بالقواعد والأصول التي نُسمِّيها علم النحو وعِلم الاشتقاق والصَّرف وعلم البيان.

١٧- ولعلَّك تعرفُ ممَّا مضى أنَّ النحو والاشتقاق والبَيان هي من اللغة بمنزلة مُفرَداتها[٧]؛ إذ كانت مرتبطة بها في

٧- أوَّل مَن نظر في العربية هذا النظر، وشرع في تفصيله والكلام عنه، هو الإمام الجليل أبو الفتح عثمان بن جِنِّي، ولكنَّه أدمج القول فيه إدماجا يتعذر معه لطالب هذا العلم أنْ يدرك مبهماته وخوافيه، وأنْ يلقي الشبهات التي تكتنفُ تفكيره =

تدرُّجها وارتقائها أو ضعفها وانحِطاطها، فلو أنَّك أردت أن تستغني مثلاً عن الحركات التي سُمِّيَتْ فيما بعدُ حركات الإعراب في لغةٍ من اللغات لكان لِزامًا عليك أنْ تُدخِل التغيير والتبديل في مفردات اللغة نفسها وفي اشتقاقها وصَرفها وأساليب بيانها، أمَّا أنْ تتَّخذ مفردات لغةٍ من اللغات وتَزْوِي وجهك عن حركات إعرابها وأساليب بيانها وطرق اشتقاقها وصرفها استجلابًا لسهولة استعمالها وسرعة ذيوعها - فهذا قَتْلٌ لِكِلْتَيْهِمَا، وإفسادٌ في طبيعة الأشياء لا يُقِرُّه عقلٌ ولا يُجُاريه منطق.

١٨- وقد كتبنا هذه الكلمة - على قِصَرِهَا واتِّساع ميدان الكلام في أغراضها - لنتقدَّم بالكلام عن نشأة النحو في العربيَّة، فلو أتاحَتْ لنا الأيَّام بعد استِيفاء الكلام كله في هذا الأصل أصدرنا - بعون الله - كتابًا مستقلاً بنفسه لا نَدَعُ فيه

=

جانبًا، ومع هذا فهو أشتات في كتبه لم يجمعها باب قائم بنفسه يكون أهدي للقارئ وأقوم عليه. (شاكر)

كلمةً للرأي إلا قُلناها، وعرَّفنا المبتدعة مكانَ النحو والاشتقاق والبيان من اللغات، وفتحنا طريقًا لمعرفة سرِّ الإعراب في العربيَّة، وأَبَنَّا عن معاني الحركات الأربعة في مَواقعها من الكلام العربي [٨]، والله المستعان.

٨- لم يتيسر للشيخ أن يكتب هذا الكتاب المستقل الذي تحدث عنه، وانصرف عنه إلى أمور أخرى مثلما انصرف عن مشاريع كتب ذكرها في كتبه ومقالاته، ولو كان كتبَ ما وعد به لكان إضافة قيمة جليلة إلى المكتبة العربية.

اللغة والإعراب وعلم النحو

١٩- قال شيخُنا أبو الفتح عثمان بن جِنِّي [٩]:

((حضرَنِي قديمًا بالموصل أعرابيٌّ عقيلي جوثي تميمي يُقال له: محمد بن العساف الشَّجري، وقلَّما رأيت بدَوِيًّا أفصحَ منه، فقلت له - شغفًا بفصاحته، والتِذاذًا بِمُطاوَلته، وجريًا على العادة معه في إيقاظ طَبعِه، واقتِداح زَنْدِ فِطْنَتِهِ -: كيف تقولُ: "أكرَمَ أخُوكَ أبَاكَ" فقال: كذاك، فقلت له: أفتقول: "أخُوكَ أبُوكَ؟" فقال: لا أقول: "أبُوكَ" أبدًا، قلت: فكيف تقول: "أكرَمَنِي أبُوكَ"؟ فقال: كذاك، قلت: أفلَسْتَ تزعُم أنَّك لا تقول: "أبُوكَ" أبدًا؟ فقال: إيش هذا! اختلفت جِهَتَا الكَلاَم... فهل قوله: "اختلفت جهتا الكلام" إلا

٩- وردت هذه الحكاية وما بعدها بألفاظها في "معجم الأدباء" مجتمعة، وورد بعضها بألفاظ مختلفة في مواضع مختلفة من كتاب "الخصائص" لابن جِنِّي، وسنشير إلى موضع كل واحدة منها في الكتاب.

كقولنا نحن: "هو الآن فاعل وكان في الأوَّل مفعولاً"، فانظُر إلى قِيام معاني هذا الأمرِ في أنفُسِهم وإن لم تُطِعْ به عِبارتهم)). [١٠]

٢٠- وقال شيخُنا - رحمه الله -: ((وسألتُ الشجريَّ صاحبَنا هذا الذي قد مضَى ذِكرُه قلتُ له: كيف يا أبا عبدالله تقول: "اليَوْمَ كَانَ زَيْدٌ قَائِمًا"؟ فقال: كذلك، فقلت: فكيف تقول: "اليوم إنَّ زيدًا قائم" فأباها البتَّة، وذلك أنَّ ما بعد "إن" لا يعمَلُ فيما قبلها؛ لأنها إنما تأتي أبدًا مستقبلة قاطعة لما قبلها عمَّا بعدها وما بعدها عمَّا قبلها)). [١١]

٢١- ((وقلت له يومًا ولابن عَمٍّ له يُقال له: "غصن" -وكان أصغرَ منْهُ سنًّا وألينَ لسانًا -: كيف تُحَقِّرَانِ "حَمْراء" فقالا: "حُمَيراء" قلت: فـ"صَفْراء"؟ قالا: "صُفَيراء"، قلت: فـ"سَوْداء" قالا: "سُوَيداء" واستمررت بهما في نحو هذا، فلمَّا استويا عليه دسَسْت

١٠- معجم الأدباء، ياقوت الحموي، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، ط ١- ١٩٩٣، ج ٤، ص ١٥٩٥-١٥٩٦، وانظرها بألفاظ مختلفة في "الخصائص" تحقيق محمد علي النجار، دار الكتب المصرية – المكتبة العلمية، ١٩٥٢، ج ١، ص ٢٥٠.

١١- معجم الأدباء، ج٤، ص ١٥٩٦.

بين ذلك "عِلْبَاء" [1]؛ فقلت: "فعلباء"؟ فأسرع ابن عمه على طريقته طريقته فقال: "عُلَيباء" وكاد الشجري يقولها معه، فلمَّا هـمَّ بفـتح الباء استرجع مسـتنكرًا فقـال: "آه! عُلَيْـبِيٌّ" وأشـمَّ الضـمة رائمًـا للحركة في الوقف، وتلك عادةٌ له)). [2]

٢٢- قال ابن جِنِّي: ((وسـألته يومًـا: يـا أبـا عبـدالله، كيف تجمعُ مُحْرَنْجِمًا؟ وكان غرضي مـن ذلـك أنْ أعلـم مـا يقـوله؛ أيُكسِّـر فيقول: "حَراجم" أم يُصحِّح فيقول: "مُحْرَنْجِمَاتٌ"؟ فذهب هو مذهبًا غير ذَيْنِ فقال: وإيش فرَّقَه حتى أجمعَه! وصدَق؛ وذلك أنَّ المُحْرَنْجِمَ هو المجْتَمِعُ. يقولها مارًّا على شَكِيمته غير مُحِسٍّ لما أريدُه منه، والجماعة معي على غاية الاستِغراب لفَصاحته... قلت له: فدَعْ هذا؛ إذا أنـت مَـرَرْتَ بإبـلٍ مُحْرَنْجِمَـةٍ وأخـرى مُحْرَنْجِمَـةٍ وأخـرى مُحْرَنْجِمَةٍ تقول: مررت بإبل ماذا؟ فقال - وقد أحسَّ الموضـع -: يـا

١- العلباء: عصب العنق.

٢- معجم الأدباء، ج٤، ص ١٥٩٦- ١٥٩٧.. وانظرها بألفاظ مختلفة في الخصائص، ج٢، ج٢، ص ٢٦. وفي رواية الخصائص ما يشير إلى ضبط "عليبيّ"؛ يقول: "ورام الضـمة في الياء".

هذا، هكذا أقول: "مررت بإبلٍ مُحُرَنْجِمَاتٍ"، وأقامَ على الصحيح ألبتَّة، استِيحاشًا من تكسير ذَوات الأربع لمُصَاقَبَتِهَا [1] ذَوات الخمسة التي لا سبيلَ إلى تكسيرِها، لا سيَّما إذا كان فيها زيادةٌ، والزيادة قد تعتدُّ في كثيرٍ من المواضع اعتِداد الأصول حتى إنها لتَلزَمُ لُزومها نحو: كَوْكَب، وحَوْشَب، وضَيْوَن، وهَزَنْبَرَان، ودَوْدَرَى، وقَرَنْفُل، وهذا موضعٌ يحتاج إلى إصغاءٍ إليه، وإرعاءٍ عليه، والوقت - لتَلاحُمُه وتقارُب أجزائه - مانعٌ منه، ويُعِينُ الله فيما يَلِيه على المعتقَد المنويِّ فيه بقُدرته)). [2]

٢٣- قال شيخُنا: ((وسألته يومًا: كيف تجمعُ سِرْحَانًا[3]؟ فقال: "سَرَاحِين"، قلت فدُكانًا؟ قال: "دَكَاكِين" قلت: فقُرطانًا [4]؟ قال: "قراطين"، قلت"فعُثمان"؟ قال: "عُثْمَانُون"؟ قلت: هلا قلت: "عَثَامِين" كما قلت: "سَرَاحِين وقَرَاطِين"؟ فأباها ألبتَّة،

١- المصاقبة: المقاربة والمواجهة.

٢- معجم الأدباء، ج ٤، ص ١٥٩٧.

٣- السِرحَان: الذئب، وقيل هو الأسد.

٤- القُرطانُ: ما يكونُ تحت سرج الفرس.

وقال: إيش ذا! أرأيت إنسانًا يتكلم بما ليس من لغته، والله لا أقولها أبدًا... استوحش من تكسير العلم إكبارًا له، لا سيَّما ومنه الألف والنون اللتان بابهما فعْلاَن الذي لا يجوزُ فيه فعالين نحو سكران وغضبان)). [1]

٢٤- قد عرَضْنا لسان هذا الأعرابي ولسان ابنِ عمِّه لنردَّك إليهما في سِياق كلامنا هذا عن اللغة والإعراب وعلم النحو؛ لئلا نقطع عليك سبيلَ الكلام حين لا بُدَّ لك من الاستمرار.

٢٥- قلنا: إنَّ حَرَكَات الإِعْرَاب من اللُّغَة بمنزلة مفرداتها؛ وذلك أنهما درَجَا معًا على الألسنة وتَوافقَا على أمرٍ من الزيادة والنُّقصان والإبقاء والحذف، وعَمِلا في الألسنة حتى مرنت واستَقامَتْ، وعملت فيهما الألسنة حتى تهذَّب منهما ما جَفَا وما انتشر وما غَلُظَ؛ لما في طبيعة الإنسانيَّة من مُداورةِ ما يجرى معها حتى يخفَّ بعد ثقلٍ، ويلين بعد صلابة، ويتشابَه بعد

١- معجم الأدباء، ج ٤، ص ١٥٩٧، وهي في الخصائص مع بعض الاختلاف، ج ١، ص ٢٤٢.

تنافُر، ويستقرَّ بعد اضطراب، فلمَّا تَمَّ ذلك لم يكن هناك محيصٌ من أنْ تقوم ألسنة القوم ولغتهم على أمرٍ جامعٍ لا يتفرَّق بها، فترتدَّ إلى الضعف والانحلال، وتباعد الأطراف والفساد واستحالة النماء؛ فكان ما نُسمِّيه نحن الآن من الإعراب والنحو والبيان بأسماءٍ اتَّخذناها أداة للتعبير عن سِرِّ مَعانيها في الكلام= قائمًا في ألسنة القوم مقامَ القانون الطبيعي الراسخ الذي لا يتحوَّل، فكان رفعُ الفاعل ونصبُ المفعول عندهم كمخرجِ الحروف عن اللسان والشَّفتين واللهاة، ولا فرق.

٢٦- ولو أردت أنْ تُقرِّب هذا المعنى إلى فهمك وتُوضِّحه لنفسك، فاضرِب المثل بالحمار والفرس والبغل، فهذه الثلاثة على تقارُب شِيَتِهَا وتشابُه أعضائها وتناظُر بدنها وتركيبها، مُمَيَّزةٌ في بصَر الإنسان، مُفرَّق بين كلٍّ منها بخصائص لا تُخْطِئها الطبيعة الإنسانيَّة من طُفولتها إلى صِباها إلى شَبابها إلى فتوَّتها إلى هرمها، حتى تصل إلى قبر الأبَد، ولا يَزال الحمار حمارًا والفرس فرسًا والبغل بغلاً، مهما اختلفت الألوان أو تغيَّرت البلدان، ولا تزال الخصائصُ المميِّزةُ قائمةً فيها على هذا الاختلاف والتغيُّر،

فكذلك كانت حَركات الإعـراب والنحـو على الكلمـة الواحـدة على اختِلاف مَواقعها من الكلام كالشِّيَةِ لها تُميِّزها عن أختهـا الـتي هي مثلُها في حُروفها وباقي حَركاتها حتى أصـبحت قائمـةً في ألسـنة كُلِّ قومٍ على أصول لغتهم متميِّزة بفطرة الألسنة، أو ما صار لها بالتَّكْرَار والعادة كالفطرة المرهفة الدقيقة التي لا يختلُّ تَمْيِيزُهَا، أو لا يضعف إحساسها بالخصـائص الملازمـة لشـيءٍ بعينِـه مـن بـين الأشـياء المتشابهة.

٢٧- فلا يَجُولنَّ بخاطرك أنَّ الفتحة والكسـرة والضمَّة والسكون دخيلاتٌ على الحروف الـتي تقـعُ عليهـا في أوَّل الـكلام وأوسطه وطرفه، فجعلت بالوضع للتمييز بين أبنية الكلام أو مَعانيه التي يدورُ عليها، واعلم أنَّ هذه المعاني لا تلمُّ بقلبٍ ناطقٍ بلغةٍ ولا تتعلَّق بفهمه، أوَ لا ترى إلى صاحبنا الشجري حـين سـأله شـيخُنا وأدارَه [1] على أنْ ينطِق "أكرَمَ أخوك أبوك" بالرفع، فأباها واستوحش وقال: لا أقولُ: "أبوك" أبدًا، فلمَّا سأله أنْ يقول: أكرمني أبوك قـال:

---

[1]- هكذا في الأصل، ولعلها "أراده".

"أبوك"، وذكر العلَّة التي يعرفها والـتي هي الحقيقـة الأولى في اللغـة قبل أنْ يُوضَع الاصطلاح النحوي المعقَّـد فقـال: "اختلفـت جهتـا الكلام"، فالحركات عند هذا الأعرابي وغيره ممَّـن كان ينطـق اللغـة سليقةً لا اكتسابًا وتعمُّلاً، تقعُ على معاني الكلام وتصرُّفـه ووُجوهـه دُون كَدٍّ للذهن أو تصـريفٍ للسان بعنانٍ من الفكر، فكأنَّ الكلمة الواحدة عندنا هي عنده أربع كلمات أو ثلاث وفقًا للحركات الـتي تكونُ عليها، ولكلِّ واحدةٍ في حالتها معنى أو معـانٍ لا يتجاوَزُهـا استعمالُهُ ولا يُطِيع بغيرها في موقعها لسـانُه ولا فكـرُه ولا فِطرتُـه، وهذا غير بِدْعٍ في أمر الألسنة، فأنت ترى لكلمة "العين" مثلاً عنـد العربيِّ المبرَّأ معـانيَ متباعـدة وأخـرى مُتقاربـة، وهـو يُمَـيِّزُ بينهـا ويَفْصِلُ بين وجوهها من حقيقةٍ ومجاز، ولا يكاد يُخْطِـئُ مَوْضِـعَهَا من الكلام حينَ تكونُ الضَّرورة لاستعمال هذا اللفظ.

٢٨- وكذلك القول في بقيَّـة أبـواب النحـو والصـرف والاشتقاق والبيان، فهذه كلُّها كانت جاريةً في ألسـنة القـوم مجـرى قوانين الجاذبيَّة، فما تشذُّ كلمةٌ عن بابها الذي وُضِعت بعدُ فيه مـن علم النحو أو غيره؛ لأنَّ قانون الألفاظ الذي يضبطُ ألسنة كلِّ قومٍ

على سنَّة لغتهم لا يدعُ الكلمة تخرُجُ من دائرة تأثيره أبدًا مهما كان التشابُه قريبًا بين الكلمتين اللتين يُسَوِّغُ العقلُ -إلى مَدىً- اختلاطَ إحداهما بالأخرى في تصريفِها أو وضْعها أو تقليبها على وُجوه الجمع والتحقير وغير ذلك.

٢٩- ألا ترى إلى صاحبنا الشجري كيف جمَع سِرْحَانًا وأشباهها على سَرَاحِين، فلمَّا دسَّ له شيخنا أبو الفتح "عثمان" بين هذه المتشابهات لم يقل إلا: "عُثْمَانُون" وأبَىَ "عَثَامِين"، فلمَّا سُئِل عن العلَّة لم يكنْ جوابه إلا تَعجُّبًا من أمر سائله، وشكًّا في عِلمه ومعرفته فقال: إيش ذا! أرأيت إنسانًا يتكلَّم بغير لُغته؟ فهذا الأعرابي لا يعرف قِياسًا ولا علمًا ولا ألفًا ونونًا، بل كلُّ ما يعرفه أنَّه إذا رأى سِرْحَانًا وسِرْحَانًا وسِرْحَانًا قال: هذه سَرَاحِين؛ وذلك لأنَّ الفرد في طبيعة الإنسان ونظره وفِكره غير الجماعة، فهو محتاجٌ إلى لفظٍ غير لفظ الشيء المفرد ليُعبِّر عن عدَّة أفراد من هذا الشيء نفسه، فاختار له بالطبيعة لفظًا آخَر يُقارِبُ اللفظ الذي يدلُّ به على المفرد، وهذا ما نُسمِّيه نحن بالجمع، وهذا المفرد وجمعُه يضمَّان بين أحرُفهما تاريخَ نشأة هذه الكلمة وتاريخ تدرُّجها في

اللسان، والذي نسميه نحن بالاشتقاق والأصل، وعثمان وعثمانون مفردٌ وجُمِعَ فيهما تاريخ نشأتهما وتدرُّجهما في اللسان، فلمَّا اختلف تاريخ نشأة هذين اللفظين المفردين "عُثمان وسِرْحَان" وتدرُّجهما في اللسان خَالَفَتْ فطرةُ اللسان بين جَمْعَيْهِمَا مخالفةً ظاهرة؛ فاعلَمْ من ذلك أنَّ الحرفين إذا اتَّفق تاريخُ نشأتهما وتدرُّجِهِمَا في اللسان كان القانون الذي يجريان عليه واحدًا في لسان أهلِ اللغة، دُون أنْ يعرفوا لذلك علَّةً مُقرَّرة، ما العلَّة عندهم إلا أنَّ هذه لغتهم وحسْب.

٣٠- وهذا بابٌ من القول لم نَستَوفِه لضِيق الوقت والتزامِنا إخراجَ هذا الجزء من الأشموني في مِيعاده الذي ضُرِبَ له، ونحن لا نفتات على اللغة بما لا تَرْضَاهُ ولا تُقِرُّه، ولا نذهب بها مذهبًا هي إلى غيره أميَلُ، ولا نضَعُها موضعا هي في غيره أَشْرَفُ وأنْبَلُ؛ فلذلك نَعِدُ القُرَّاء بأنْ نُوافِيَهم قريبًا بكتابٍ واسع المُضْطَرَبِ، نزيدُ فيه الرأي وُضوحًا، ونقفُ عند كلِّ كلمةٍ منه مع

القارئ نُبيِّن له ونُوضِّح؛ حتى نُقرِّر المذهب الذي نذهبُ إليه[1]، فإن ارتضاه اعتقَدَه، وإنْ أباه ردَّ علينا فسادَه ونبَذَه، والله المستعان.

١- انظر ما سلف، التعليق (١) على الفقرة ١٨.

سبب وضع العربية:

٣١- رأينا قبلُ أنَّ اللغات نشَأتْ مضطربةً على الألسنة، وعَمِلَتْ في الألسنة عمَلَها، وعَمِلَتْ فيها الألسُنُ والعقولُ والحاجاتُ عَمَلَهَا أيضًا، وكان عملُ الألسنة تهذيبًا وإدارةً وتنقيةً وجمعًا لما في طبيعة الإنسانيَّة من مُداورة ما يَجَرِي معها حتى يخفَّ بعد ثقلٍ، ويلينَ بعد صلابة، ويَتَشَابَهَ بعد تَنَافُرٍ، ويستقرَّ بعد اضطراب؛ ليكفَلَ ذلك كلُّه للُّغة النماءَ والقوَّة والاستحكام؛ لئلا تضعُف وتَنْحَلَّ وتسقط وينتشر ما اجتمع من أمرها. واستمرَّ هذا التدرُّج في الألسنة حتى وصَلتْ إلى حالةٍ من الاستقرار وفقًا لتدرُّج التمدُّن في الارتقاء والنموِّ إلى درجةٍ من الاستقرار والثَّبات.

٣٢- هذا، وقد كُنت أودُّ أنْ أسيرَ بالقارئ في الجزيرة العربيَّة من أوَّل عُهود التاريخ التي وصلَتْنا إلى العهد الذي احتفَتْ فيه بنور إسماعيل - عليه الصلاة والسلام - وما كان من أمر هذه الجزيرة بعدَ ذلك إلى أن استقرَّ اللسان العربي على حالةٍ بَيْنَ بَيْنَ في القرنين السابقين لإشراق نُور النبوَّة فيها، وهبوط الوحي بالمعجزة الباقية أَبَدَ الدهر على محمد رسول الله وخاتم النبيِّين - صلَّى الله

عليه وسلَّم - ولكنِّي أُفضِّل الآن لهذه الكلمة المُوجَزَة أنْ يكون بَدْءُ القول في أمر لغة العرب من العهد القَريب السابق لرسالة رسولنا صلَّى الله عليه وسلَّم.

٣٣- قال التاريخ: إنَّ هذه الجزيرة العربيَّة - التي تحدُّها من الشرقِ بلادُ فارس، ومن الغرب بحرُ القلزم ومشارفُ الشام وأطرافُ مصر، ومن الشَّمال أرضُ الشام وفيها غسَّان والروم، ومن الجنوب بحرُ الهند - قال: كانت هذه الجزيرة منزلاً لقَبائلَ تفرَّقت في أوديتها وحُزونها وأباطحها وبَيْدائها، وكان جلُّ اعتِماد أهلها على الرحلة من مكانٍ إلى مكان في طلب الغَيْثِ وانتِجاع المرتع، والتصرُّف في وجوه التجارة ما بين جَوانبها وبين مصر والشام وبلاد الروم وأرض الحبش وديار فارس، وتصرَّمتْ على أمرها هذا الحِجَج الطوال، فكانت هذه القبائلُ تتكلَّم عِدَّةَ لهجاتٍ منها العربيَّة التي وصلتنا - والتي يُسمُّونها لغة قريش - ولا شَكَّ في أنَّ هذه القبائل - التي تسكُّن جزيرة العرب وتعمرها - كانت تتلاقي بالجوار والترحال والتجارة، فكان الرجل من قبيلةٍ إذا نزَل بأرض قبيلةٍ أخرى لم يعسر عليه أنْ يكون بينهم كأحدهم منطقًا

وإفهامًا وتفهُّمًا، وإلا لتَدابَرتْ هذه القبائل وتقطَّعت الصلة بينها، ولكان التاريخ قد قذَف بها جميعًا من سِجِلِّه، ولم يصلنا من شعرها ولا أخبارها ولا لهجاتها شيءٌ أبدًا، فهذا دليلٌ على أنَّ هذه اللهجات التي اتَّخذتها القبائل كانت قليلةَ التَّخالُف كثيرة التشابُه مُتَدَانِيَةَ الأصول؛ فلذلك قام أمر العرب قبلَ الإسلام على الاجتماع في أسواقٍ ذكَرَها التاريخُ ووصَلَنا شيءٌ لا بأسَ به من أخبارها، فكانت العرب تلتقي فيها للتجارة وإنشاد الشعر والتفاخُر والتحاكُم والتحالُف، وغير ذلك من شُؤونها ومَصالحها، وحدَّثَنا التاريخ أنَّ اللهجة التي كان يُرجَعُ إليها في أمر لسانهم هي لهجة قُريش التي نزَل بها الوحي على أمين الله في أرضِه والشاهدِ على الناس رسولِ الله – صلَّى الله عليه وسلَّم – فكان ذلك مبدأَ اتِّفاق اللهجات المختلفة على أمرٍ جامع لا يتفرَّق بها إلى مذاهب الضَّعفِ والانحِلال، وبهذه الأسواق الجامعة لأشتات القبائل ونِزاعها وأشْرافها وصَمِيمها وفُصَحائها وشُعَرائها= بدأت لهجات اللسان

العربي تَخِفُّ بعد ثقلٍ وتلـينُ بعـد صـلابة؛ وتتشـابه بعـد تنـافُر، وتستقرُّ بعد اضطراب، حتى جاءتهم المعجزة [٢] الـتي ألقـوا إليهـا بالمقادة واتَّبعوها كارهين وطائعين وتوافَدُوا إليها وهم من كلِّ حَدْبٍ يَنْسِلُونَ.

وقام القُرآن على ألسنتهم فضبَطُها وألَّف بينها كما ألَّف بين قُلوب أهلها بعد الشِّقاق والتَّناحُر والعَداوة والبَغضـاء، فلانـت بـالقُرآن ألسِنَةُ القبائل، وزادت مطاوعةً وليانًا باجتمـاع رجالهـا في الجِهـاد وهُمْ على قلب رَجُلٍ واحِدٍ أحِبَّاء لا يتنابذون ولا يتدابَرُون.

٣٤- وكانت هذه الأسواق تجمع أفذاذَ العرب ونوابغهـا، وتُوقِظُ فيهم القُوَى الإنسانيَّة كلَّها، خَيْرُها وَشَرُّهَا، ومن تلك القُوَى التي تنبَّهت في أفرادٍ من العربِ الإدراكُ اللغوي، فكان يقومُ هـؤلاء الأفراد مقامَ القُضاة على قَضايا اللسان العربي، فمن هـؤلاء النابغـة

٢- سماها الشيخ رحمه الله فيما بعد "الآية" و"معجـزات الأنبيـاء" "آيـات الأنبيـاء"، ورفض كلمة الإعجاز والمعجزة والتحدي بمعانيها الدائرة بـين النـاس اليـوم، وبيـان ذلك في كتابه "مداخل إعجاز القرآن".

الذُّبياني وغيرُه. فكان يُعرَضُ عليهم شِعر القبائل فيُزيِّفون منه زيفَه ويَرُدُّونَ سَاقِطَه، ويُعْلُون عَالِيَه، ويشهَدون لجيِّده، ولعلَّ نظرةَ هؤلاء القضاة كانت نظرةً شاملة في المعاني والألفاظ ومواقعها وقوَّتها واختلالها، وكانوا قد عرَفُوا بما رُكِّبَ فيهم من أسباب النُّبوغ أَحْكَامًا صَحِيحَةً عن أساليب البَيان وأنواع الخطأ الذي يُدرِك اللسان على قلَّته وخَفائه [٣]، وكانت أحكامُهم هذه لا تعرف الاصطلاحَ والوضع ولكنَّها كانت أحكامًا فطريَّة، كما رأيت من قول صاحبنا الشجري: "اختلفت جهتا الكلام" [٤]، وقوله في المرَّة الأخرى: "أرأيت إنسانًا يتكلَّم بما ليس من لغته"؟ [٥]، وغير هذا من الأمثلة الكثيرة التي لم يُسعِفنا الوقت بلمِّ شَعَثِها وتقييد نُصوصها في هذا المكان، فكان تنبُّه هذه القوَّة في هؤلاء الأفراد، وسَيْرُورَةُ ما

٣- هذا يدفع قول الذين يزعمون أن النقد في الجاهلية وصدر الإسلام كان أحكاما انطباعية غير مؤسسة، وهو مذهب يذهبه من لم يغص في البيان العربي، فشق عليه أن يتبين صحة تلك الأحكام وقوتها ودقتها..

٤- انظر ما سلف، الفقرة ١٩.

٥- انظر ما سلف، الفقرة ٢٣.

يحكُمُون به على الشِّعر والخَطابة، هو بَدْءُ وضع علـم العربيَّـة الذي سَمَّوْهُ فيما بعدُ نحوًا وبيانًا واشتقاقًا وتصريفًا .

٣٥- فلمَّـا ظهَـر الإسـلام على الوثنيَّـة، وغلـب الـروم والفرس على أمرهم، واستَفاض الفتح، وتدفَّقت العرب في بلاد الله، وأسلمت الأعاجم أو جلُّها، فاسْتَقْبَلَت [٦] الجزيرةَ العَربيَّـةَ للحـجِّ والتكسُّب، وتَزَاوَجَ العربُ من الأُمَمِ الأُخْرى، واختلطت الألسـنة الفصيحة بألسنة العجم الرُّوم والنبط = تغيَّرت حاجة العربيَّة بعدَ استِقرار لسانها، فبعـد أنْ كانـت الأسـواق الـتي تجمـعُ العـرب هي الحاجة وهي الضَّرورة لتهذيب اللسان العربي، صارت الضـرورة في أمرٍ آخَر يكـونُ حاكمًا للسان العربي؛ لئلا ينزلـق إلى مَهْـوىً مـن الضعف ويكـون سورًا منيعًا ليردَّ الدُّخَلاء ويكـون مَنـارًا ليهـدي مَن ضلَّ عن سبيله، واعلَمْ أنَّ هذه الحاجة لم تشتدَّ إلا بعد اتِّسـاع الفتوح الإسلاميَّة، وتوافُد الأعاجم على البـلاد العربيَّـة مسـلمين، وذلك في عهد عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - ومَـن تـلاه مـن

٦- استقبلت الجزيرةَ: (هنا) جعلتها قبلة لها، تقصدها للحج.

الخُلَفاء الراشدين، ثم استمرَّ الأمر على ذلك إلى أنْ ظهر رجالٌ ضبطوا اللسان بأحكامٍ وأصولٍ سموها النحو.

٣٦- قالوا: إنَّ أوَّل مَن وضع هذه الأحكام والأصول على بن أبي طالب - رضِي الله عنه - وذلك لما رُوِي عن أبي الأسود الدؤلي - رحمه الله - أنَّه قال: ((دخَلتُ على أمير المؤمنين عليٍّ - عليه السلام - فوجدت في يده رقعةً فقلت: ما هذه يا أمير المؤمنين؟ فقال: "إني تأمَّلت كلام العرب فوجدته قد فسد بمخالطة هذه الحمراء - يعنى الأعاجم - فأردت أنْ أضع شيئًا يرجعون إليه ويعتمدون عليه"، وفيها مكتوب: الكلام كله: اسم وفعل وحرف؛ فالاسم ما أنبأ عن المسمَّى والفعل ما أُنبِئ به، والحرف ما أفادَ معنى غير هذين، وقال لي: "انْحُ هذا النحو، وأضِفْ إليه ما وقَع [٧] إليك، واعلَمْ -يا أبا الأسود- أنَّ الأسماء ثلاثة: ظاهِرٌ ومُضْمَرٌ واسمٌ لا ظاهرٌ ولا مُضمر، وإنما يتَفاضَلُ الناس -يا أبا الأسود- فيما ليس بظاهرٍ ولا مضمر، وأراد بذلك الاسم المبهم."

٧- في الأصل "ماقع إليك"، وهو خطأ مطبعي..

قال: ثم [٨] وضعتُ بابي العطف والنعت، ثم بابي التعجب والاستفهام، إلى أنْ وصلتُ إلى باب "إن وأخواتها" ما خلا "لكن"، فلمَّا عرضتها على عليٍّ - عليه السلام - أمرني بضمِّ "لكن" إليها، وكنت كلَّما وضعت بابًا من أبواب النحو عرضته عليه - رضي الله عنه - إلى أنْ حصَّلتُ ما فيه الكفايةُ فقال: "ما أحسَنَ هذا النحوَ الذي قد نحوتَ"؛ فلذلك سُمِّي النَّحْوَ)) [٩]. ورُوِيَ أنَّ سبب وضع عليٍّ - عليه السلام - لهذا العلم أنَّه سَمِعَ أعرابيًّا يَقْرَأُ: "لا يأكله إلا الخاطئين"، فوَضَعَ النحو. [١٠]

٣٧- هذا، وقد كثُرت الرِّوايات في سبب وضْع هذا العلم وأوَّلِ مَن وضعَه، وأكثرُ هذه الروايات باطلٌ لا يقومُ بحجَّة ولا يقعُدُ. وهذه الكلمة لا تَكفِي لذِكر كلِّ رواية، وعلَّتِنا في تزييفها وردِّها وإقامة الحجَّة على صواب ما نذهب إليه من أنَّ أوَّل مَن

٨- في نزهة الألباء "[ثم] قال"

٩- نزهة الألباء في طبقات الأدباء، ابن الأنباري، تحقيق إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار -الأردن، ط ٣، ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م، ص ١٨ — ١٩.

١٠- نزهة الألباء، ص ١٩.

اهتَدَى إلى وضْع ضابطٍ لبعض وُجوه هذا اللسان العربي هو أبو الأسود الدُّؤَلي رضِي الله عنه . وكذلك اختلفت الرِّواية في أوَّل بابٍ وضَعَه أبو الأسود من علم العربيَّة، والذي نذهَبُ إليه -على ضَلال المذهب وتعقُّده، وانتشار أمرِه- أنَّ أوَّل ما وُفِّقَ إلى التنبُّه له أبو الأسود هو باب الفاعل؛ وذلك لِكَثْرَة دوران الجملة الفعليَّة على لِسانهم، وظُهور الرفع على طرَفِ الكلمة ظهورًا بيِّنًا؛ لأنَّ الضمَّة هي أثقل الحركات على اللسان العربي.

٣٨- واعلَمْ أنَّ هناك مذهبَيْنْ للرأي في أوَّل ما وُضِعَ من علم النحو: أحدهما: أنَّ أوَّل ما وضَع أبو الأسود من أبواب النحو =ما وقَع فيه اللحنُ، وهذا ما ذهَب إليه جمهورُ النحويين أصحابُ كُتُب التراجم الذين ترجموا للُّغويين والنحاة. والآخَر: أنَّ علم النحو وُضِعَ على أساسٍ من التفكير في استنباط قواعد للعربيَّة تضبطُها وأصول يُبنَىَ عليها، فأوَّل ما يُوضَع من القواعد ما يكونُ أقربَ إلى مُتناوَل الفكر في الاستنباط.

٣٩- ونحن لا نستطيع أنْ نُزيِّف الرأيَ الأوَّل؛ إذ كان هو الذي وردَتْ به الرواية الصحيحة مهما اختُلِف في الذي وقَع فيه

اللحنُ من أبواب العربية، فقد رأيتَ قبلُ أنَّ سبب وضع العربيَّة أنَّ عليًّا - رضِي الله عنه - سمع أعرابيًّا يقرأ: "لا يأكله إلا الخاطئين."

٤٠- وقالوا: إنَّ أعرابيًّا قدم المدينة في زمان عمر - رضي الله عنه - فقال: مَن يُقرِئُني ممَّا أنزل الله؟ فأقرأه رجل (براءة) فقرأ: ﴿ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ﴾ [التوبة: ٣]، بكسر اللام من ﴿ رسوله ﴾ فقال الأعرابي: أَوَقَدْ بَرِئَ الله من رسوله! إنْ يكن الله قد بَرِئَ من رسوله فأنا منه أبرَأُ، فبلغَتْ مَقالةُ الأعرابي عمرَ، [...] [فاستَوْثَقَ عمر من الخبر، فلمَّا عرفه] أمَرَ ألا يُقرِئَ القُرآن إلا عالم باللغة، ودعا أبا الأسود فأمَرَه فوضَع النحو)).[١١]

٤١- وقالوا: إنَّ سبب الوضع أنَّ ابنة أبي الأسود قالت له يومًا: يا أبه ! ما أحسنُ السماء! فقال: أيْ بنيَّة! نجومُها، قالت: إنِّي لم أُرِدْ أي شيء منها أحسن، إنما تعجَّبت من حُسنها، قال: إذن

١١- نزهة الألباء، ص ١٩- ٢٠، مع تفصيل في القصة اختصره الشيخ رحمه الله بقوله " فاستَوْثَقَ عمر من الخبر، فلمَّا عرفه" فوضعنا اختصار الشيخ بين معقوفتين.

فقولي: ما أحسنَ السماءَ.. فحينئذٍ وضع كتابا... إلى غير ذلك من الروايات.

٤٢- ولا شكَّ أنَّ هِمَّة أبي الأسود لم تنهَضْ إلى الفكر في وضْع أصولٍ تُضبَطُ بها العربيَّة أو أبوابٍ منها إلا بعد أنْ بَدَرَ اللحنُ على لسان المسلمين من الأعاجم ومَن كثُرُ اتِّصاله بالأعاجم ولُغاتها من العرَب، حتى دخَل الضَّيْم على لسانه فأفلتت منه فطرته الفصيحة، وهذا نادرٌ لا تكاد تجدُه في الزمن الأوَّل أبدًا.

٤٣- غير أنَّنا لا نقول بأنَّ أوَّل ما وُضِعَ من أبواب العربيَّة هو ما وقَع فيه اللَّحن، بل نقول: إنَّ ما وقَع فيه اللَّحن هو الذي دفَع أبا الأسود إلى التفكير في وضْع ضوابط للعربيَّة، وقد جاء في الرواية عن ابن الأَنْبَارِي قال: حدَّثنا يموتُ - يعنى: ابن المُزَرِّع - حدَّثنا أبو حاتم السجستاني، سمعت محمد بن عباد المهلبي، عن أبيه قال: سمع أبو الأسود الدؤلي - رضِي الله عنه -: ﴿ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ﴾ [التوبة: ٣]، بالجر فقال: لا تطمئنُّ نفسي إلا أنْ أضع شيئًا أُصْلِحُ به لحنَ هذا، أو كلامًا هذا معناه.

ونحن نُرجِّح أنَّ أبا الأسود إنما عَنَىَ بكلمته هذه ما أشاروا إليه في روايتهم من أنَّ أبا الأسود أتى بالمصحف واختار من عُقَلاء الرجال رجلاً من عبد القيس فقال له: ((خُذِ المصحف وصبغًا يُخالف لون المِدَادِ الذي كُتِبَ به، فإذا أنا فَتَحْتُ شَفَتِيِ فانقط واحدةً فوق الحرف، وإنْ ضمَمتُهما فاجعل النُّقطة إلى جانب الحرف، وإذا كسَرَتهما فاجعل النقطة في أسفله، فإن أتبعت شيئًا من هذه الحركات غُنَّة فانقط نقطتين)) [١٢]، فابتدأ بالمصحف حتى أتى على آخِره... ثم إنَّ أبا الأسود بدَأ يُفكِّر في وضْع قَواعد لضبط الكلام.

٤٤- فالرأيُ عندنا أنْ يكون ما وقَع فيه اللحن هو الذي استنهض أبا الأسود لوضْع العربيَّة، ولا يلزمنا أنْ نقول: إنَّ أوَّل ما وَضَعَ من أبواب العربيَّة هو الباب الذي وقَع فيه اللحن، ومن هنا تمهَّد سبيلُنا للمذهب الآخَر الذي قُلنا به من أنَّ أبا الأسود اجتهد في استِنباط القواعد، فوقعت له أبوابٌ وضع لها

١٢- نزهة الألباء، ص ٢٠ وفيها القصة كاملة.

قاعدة تُلِمُّ ببعض ما فيه، وقد قُلنا قبلُ: إنَّنا نذهبُ إلى القول بأنَّ أوَّل بابٍ وضعه أبو الأسود هو باب الفاعل، وقد روَى الشيخ الجليل الإمام السيرافي أنَّ السبب في وضْع العربيَّة أنَّه مَرَّ بباب أبي الأسود سعدٌ الفارسي (هو سعد بن بالويه الفارسي، شهد الردَّة وأبلى بلاء حسنًا) وهو يقودُ فرسه فقال له: ((ما لك يا سَعْدُ لاَ تَرْكَبُ؟ فقال: إنَّ فرسي ضالع (أراد: ظالعًا) [1] فضَحِك به بعضُ مَن حضَرَه، فقال فقال أبو الأسود: هؤلاء الموالي قد رغبوا في الإسلام ودخَلوا فيه، فصاروا لنا إخوةً، فلو علَّمناهم الكلامَ، فوضع باب الفاعل والمفعول

١- وأنت ترى هنا أنَّ الخطأ لم يكن في وضْع حركةٍ من حركات الإعراب في غير موضعها بأنْ نصَب ما يستحقُّ رفعًا أو رفَع ما أمرُه الكسر، بل أخطأَ سعدُ بن بالويه في منطق حرفٍ من حروف العربيَّة خلط بينه وبين حرفٍ آخَرَ يُشبِهه، فانظُر إلى قول أبي الأسود بعدُ: "فلو علَّمناهُم الكلام"، ثم التعليق على ذلك بقول الراوي: "فوضَع باب الفاعل والمفعول" فإنَّ سعدًا لم يلحَنْ في إعرابٍ، ولكنَّه لحن في مخرج حرفٍ من الحروف، وذلك لا يكون من جرَّائه أنْ يضع أبو الأسود بابَ الفاعل والمفعول به، إلا أنْ يكون هذا الخطأ من أخطاء كثيرة قبله في أبوابٍ من النحو كانت دواعيَ في صدْر أبي الأسود تُحفِّزه للتفكير في وضْع ضابطٍ للسان قومِه يَقِيهم مزلَّة اللحن، ويتعلَّم به الغريب عن لسانهم كيف ينطقُ الصواب أو كيف يتَّقي الخطأ إذا أوشك أن يقعَ فيه. (شاكر)

به ولم يَزِدْ عليه))[1]، وذكر مثلَه ابنُ حجرٍ في "الإصابة" عن ابن أبي سعد.

وهذه الروايات وإنْ كانت لا تقومُ دليلاً على مذهبٍ بعينه؛ لكثْرة اختلافها وتباعُد ما بين أطرافها، إلا أنها تجنحُ بنا إلى الاطمِئنان إلى الرأي الذي نذهَبُ إليه[2]، وذلك أنَّنا نظَرْنا فوجَدْنا أنَّ أبا الأسود حِين خَلا يُفكِّرُ في ضبْط الكلام أخَذ يَعْرِضُ على فِكره صُوَرَ الكلام العربي؛ فأوَّل ما يَعْرِضُ من ذلك أكثر الصِّيَغِ دورانًا على اللسان

١- أخبار النحويين البصريين، أبو سعيد السيرافي، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي وطه محمد الزيني، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده- مصر، ط١، ١٣٧٤هـ-١٩٥٥م، ص ١٣- ١٤.

٢- روى ابن النديم صاحب "الفهرست" عن محمد بن إسحاق أنَّ رجلاً بمدينة الحديثة اسمه محمد بن الحسين ويُعرف بابن أبي بعرة قد آلَتْ إليه خِزانة صديقٍ له كان مشتهرًا بجمع الخطوط القديمة، قال ابن إسحاق: "فرأيتُها وقلَّبتها فرأيت عجبًا، إلا أنَّ الزمان قد أخلقها وعمل فيها عملاً أدرسها..."، ثم قال: "ورأيت (عنده) ما يدلُّ على أنَّ النحو عن أبي الأسود ما هذه حِكايته[ـه]... وهي أربعة أوراق أحسبها من ورق الصين ترجمتها هذه، فيها كلامٌ في الفاعل والمفعول من أبي الأسود - رحمة الله عليه - بخطِّ يحي بن يعمر، وتحت هذا الخط بخطٍّ عتيق "هذا خط علان النحوي"، وتحته: "هذا خط النضر بن شميل." (شاكر)

كقولهم: ركب سعدٌ الفرسَ، وكذا وكذا من الجمل الفعليَّة، فلمَّا وجد أنَّ الذي يُخْبَرُ عنه بأنَّه قد ركب أو فعل شيئًا ما يقعُ من الكلام أبدًا مضمومًا وقَع له الرأي بأنَّ مَن فعَل الرُّكوب أو غيره يجب أنْ يقع في مثل هذه الصيغة مرفوعًا أبدًا، ثم بدا له باب المفعول به، وهو الذي وقع عليه فعلُ هذا الفاعل، فرآه منصوبًا أبدًا فأمَرَّه على ذلك، ويَلِي هذين بابُ المبتدأ والخبر لتَدانِي الشَّبه بينه وبين هذين البابين، ولعلَّ أبا الأسود وقَف عند هذه الأبواب الثلاثة ولم يزد عليها[1].

٤٥- ثم تلقَّى هذا عن أبي الأسود رجالٌ من العَرَبِ، فأخفق كثيرٌ منهم في زيادة شيءٍ على ما تلقَّوْه منه؛ فقد ذكر السيرافي أنَّ أبا الأسود لَمَّا وضَع باب الفاعل والمفعول به زادَ في ذلك

١- قدَّم سيبَوَيْهِ في كتابه باب المبتدأ والخبر (وهو المسند والمسند إليه) على باب الفاعل والمفعول به، وهذا عِندنا لعلَّةٍ لم نجد أحدًا ذكَرَها ممَّن تقدَّمَنا في هذا العلم؛ وذلك أنَّ سيبَوَيْهِ لما رأى اتِّفاق حالي المسند والمسند إليه في الرفع والاسميَّة واختلاف حالي الفعل مع الفاعل والمفعول به بين الرفع والنصب والفعليَّة والاسميَّة، قدَّم ما اتَّفق على ما اختلف، وهذا صُنْعٌ جيِّد ونظرٌ دَقيق من الإمام الكبير سيبَوَيْهِ. (شاكر)

الكتابِ رجلٌ من بني ليث أبوابًا، ثم نظَر فإذا في كلام العرب مـا لا يدخُل فيه، فأقصَرَ عنه، قال السيرافي: ولعلَّ هذا الرجل هو يحيى بن يعمر.

٤٦- وكانت الطبقة الأولى التي أخذت القراءة - قراءة القُرآن - عن أبي الأسود، وتلقَّت منه الكلامَ عـن الأبـواب التي وضَعَها من النحو، وسمتْ سمتَه في تتبُّع الـكلام العـربي جهـدَ الطاقة لوضع القواعد التي بَنَىَ عليها = نفرا[1] يُعَدُّون: نترجمُ لـكلٍّ منهم باختصارٍ بعد الكلام عن أبي الأسود رحمه الله.

[1]- في الأصل: "نفرٌ"، وهو خطأ مطبعي..

أبو الأسود الدُّؤَلِي

٤٧- لم يَـذكُر أصـحابُ التـاريخ والـتَّراجم مـولدَ أبي الأسود، ولكـنَّ أكثرهم قال: إنَّه مـات في الطـاعون الجـارف الذي وقَع بالبصرة، فأهلك أهلها إلا قليلاً، وذلك سـنة ٦٩ مـن الهجـرة، وكانت سنُّه خمسًا وثمانين سنة، غير أنَّ المدائني قال: (([وقيـلَ][1]: "إنَّه مات قبلَ ذاك"، و[وهو][2] أشـبَهُ القـولَيْنْ بالصَّـواب؛ لأنَّـا لـم نسمَعْ له في فتنةِ مسعود وأمْر المختار بذِكرٍ)) [3]، قال أبو الفـرج في ترجمة أبي الأسود [ج١١ ص١١٩] [4] ((وذكر مثلَ هـذا القـول بعينـه والشكَّ فيه: هل أدرَكَ الطاعونَ الجارفَ أو لا؟ عن يحيى بن معـين، أخبرني به الحسن بن علي، عن أحمد بن زهير، عن المـدائني ويحـيى

١- الإضافة من كتاب الأغاني.

٢- في الأصل "وهذا"، والصواب من الأغاني.

٣- الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، تحقيق إحسان عباس وإبراهيم السعافين وبكر عباس، دار صادر – بيروت، ط٣، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٨م، ج ١٢، ص ٢٤٣.

٤- أشار الشيخ إلى طبعة الأغاني التي صححها الشـيخ أحمـد الشـنقيطي، وطبعتهـا مطبعة التقدم.. وهي طبعة قديمة، وتجد هذا في الأغاني بتحقيق إحسان عباس ومـن معه في ج١٢ ص٢٤٣.

بن معين)) فلعلَّ مِيلادَ أبي الأسود كان قبلَ الهجرة بنحو عشـــرين سنةً، فهو على ذلك مخضـرم أدرك الجاهليَّـة والإسـلام، ولكنَّـه على التحقيق لم يحظَ برؤية الرسول - صلَّى الله عليه وسلَّم- وقد عَدُّوه في عِداد كِبار التَّابعين رضوان الله عليهم.

٤٨- ولم يصلْ إلينا كثيرٌ من أخبار أبي الأسود قبلَ زمن عُمر بن الخطاب رضِي الله عنه، وأوَّل ما عُرِفَ مـن أمـر أبي الأسود أنَّ عمر استعمله على البصرة خلافـةً لابـن عبـاسٍ، ثـم استَعمَلَه عثمانُ بن عفَّان وعليٌّ رضِي الله عنهما. وكان كُلُّ أمرِه مـع عليٍّ؛ فشهد معه المشاهد، وكان من وُجوه شِيعته، فلمَّا نقـل معاويـةُ أمر المسلمين من الخِلافة السَّمحة إلى المُلْكِ العَضُوض، وقام بـأمر الدولة رجالٌ من شيعته = لقي أبو الأسود عنتًا كثيرًا من عُمَّـاله على البصـرة والسواد، والأخبارُ في ذلك كثيرةٌ لا نطيل بـذِكرها؛ إذ كان الغرضُ من هذه الترجمة التعريف بأبي الأسود تعريفًا موجزًا.

٤٩- وكان أبو الأسود من الشعراء المجيـدين، وله شـعرٌ كثير جيِّد، وكان من مُحدِّثي التابعين يُحدِّثُ عن عمرَ وعليٍّ وعثمـان وابن عباس ومعاذ وأبي ذر وابن مسعود وغـيرهم، وكان مـن أوائـل

القُرَّاء الذين أُخِذت عنهم القِراءة وضَوابطُها، روى عنه [1] ابنه أبـو حرب.. قال الجاحظ: ((أبو الأسود معدودٌ في طبقـاتٍ مـن النـاس، وهو - في كلِّها - مقدَّم مأثور عنه الفضلُ في جميعها، كان معدودًا في التابعين، والفقهـاء والشـعراء، والمحـدِّثين، والأشراف، والفرسـان والأمـراء والدُّهـاة، والنحـويين، والحـاضري الجـواب، والشـيعة والبخلاء، والصُّلع الأشراف، والبُخْرِ الأشراف)) [2].

٥٠- وأنت إذا قرَأتَ ما ذُكِر في كتب الـتراجم والأدب عن أبي الأسود لتمثَّلت رجلاً حكيمًـا فصـيحًا ذكيًّـا نابغـة موفَّـق الرأي، وهذه هي الصفات العاليـة الـتي سـمتْ بـه إلى أنْ يكـون الواضع الأوَّل لأجلِّ العلوم العربيَّة التي ضبطت اللسان وأبقَتْه حيًّا إلى يوم الناس هذا، وحفظت القُرآن من لحن اللاحِنين، ونفتْ عنه تحريفَ الغالين وانتِحال المُبطِلين.

١- في الأصل "روى عن ابنه" وهو خطأ مطبعي يفسد المعنى.

٢- الأغاني، ج ١٢، ص ٢١٧.

الطبقة الأولى [٣]

٥١- حمَل علمَ النحو عن أبي الأسود جماعةٌ، يُعَدُّون في الطبقة الأولى من طبقات النُّحاة واللغويين، وسنَذكُر أشهرَهُم ونُتَرجِمُ لهم تراجمَ مختصرةً.

(1)عنبسة بن معدان

٥٢- كان أبوه "معدان" رجلاً من أهل ميسان، قدم البصرة وأقام بها، واستَعمَلَه عبدالله بن عامر على فيلٍ كان له فسُمِّي "معدان الفيل"، ولَمَّا نشَأ عنبسة لزم أبا الأسود، وعلم من عِلمه وروَى الشعر واجتهد فبرع، قال أبو عبيدة مَعْمَرُ بن المُثَنَّى: ((اختلف الناس إلى أبي الأسود يتعلَّمون منه العربيَّة، فكان أبرع أصحابه عنبسة بن معدان المهري، واختَلفَ الناس إلى عنبسة فكان أبرعَ أصحابِه ميمون الأقرن)) [٤].

٣- في الأصل "الطبقة الرابعة"، وهو خطأ مطبعي.

٤- نزهة الألباء، ص ٢٣.

٥٣- ولم نصلْ إلى تاريخ مولد عنبسة هـذا ولا وفاتـه، ولكنَّه لقي الفرزدق وجريرًا، فلعـلَّ وفاتـه كانـت في حُـدود المائـة الأولى من الهجرة قبلها بقليلٍ أو بعدها.

(2)ميمون الأقرن

٥٤- لم نظفَرْ له بعدُ بترجمةٍ يصحُّ الاعتمـادُ عليهـا [٥]، مع أنهم زعَمُوه أوَّلَ مَن وضع علم النحو.

(3)نصر بن عاصم

٥٥- قال السيوطي: إنَّه أخَذ النحو عن يحيى بن يعمـر، وقال ابن الأنباري: "قرأ القُرآن على أبي الأسود، وقرأ أبو الأسود على عليٍّ رضِي الله عنه = فكان أستاذَه (يعـني: أبـا الأسـود) في القـراءة

٥- كتب عنه شيء قليل جدا في كتب التراجم والطبقات، لا يكاد يفيد إلا في بيان منزلته بين النحاة وكونه من الذين أخذوا عنه أبي الأسود الدؤلي، وتجد هذا متفرقا في "مراتب النحويين" و"طبقات الزبيدي" و"الفهرسـت" و"إنبـاه الـرواة" و"بغيـة الـوعاة" "ونزهة الألباء"...

والنحو." وهذا هو الأرجح؛ إذ إنَّ نصرًا هذا معدودٌ فيمَن روَى عن عمر بن الخطاب - رضِي الله عنه - فأخْذُه النحوَ عن أبي الأسود أشبَهُ من أخْذه النحو عن يحي بن يعمر، وذكروا أنَّ وفاته كانت في زمن الوليد بن عبدالملك، واختلَفُوا ما بين تسعٍ وثمانين وتسعين.

٥٦- وكان نصرٌ فقيهًا، وقارئًا مجيدًا، عالمًا بالعربيَّة، فصيح اللسان واضح البيان، قال عمرو بن دِينار: ((اجتمعتُ والزهري ونصر بن عاصم فتكلَّم نصر فقال الزهري: "إنه ليُقَلِّعُ العَربيَّةَ تَقْلِيعًا"))[٦]، وكان محدثًا ثقةً جيِّدَ الرأي.

٦- لم أجد هذا اللفظ ((إنه ليقلع العربية تقليعا)) إلا في تهذيب الكمال في أسماء الرجال، للمزي، ج ٢٩، ص ٣٤٨، وفيه بعض الاختلاف في الألفاظ: ((جلست أنا والزُّهْرِيّ إِلَى نصر بن عاصم، فلما قمنا من عنده قال: إن هَذَا ليقلع العربية تقليعا)) وروي في وأخبار النحويين البصريين للسيرافي (٣٦٨هـ) وطبقات النحويين واللغويين للزبيدي (٣٧٩ هـ) وإنباه الرواة للقفطي (٦٤٦ هـ) –وهم أقدم من المزي (٧٤٢هـ) – بلفظ مختلف/ اتفقت عليه المصادر الثلاثة، ووافقت تلك الروايةُ صدرَ الخبر هنا بألفاظه، وفيها ((اجتمعتُ أنا والزّهريّ ونصر بن عاصم، فتكلّم نصر، فقال الزهريّ: إنه لَيُفَلِّقُ بالعربية تفليقا)) فلعله الأقربُ، والله أعلم.

(4)عبدالرحمن بن هرمز

٥٧- لـيس فيمـا بـين أيـدينا مـن ترجمـة أبي داود عبـدالرحمن بـن هُرْمُـز الأعـرج مـا يُبـيِّن سـنَّه أو مـولده، وكان عبدالرحمن مولى لمحمد بن ربيعة بن الحارث بن عبدالمطلب، يعـدُّ من الطبقة الثانية من التابعين المدنيِّين، قال ابن سعد: ((ثقة كثـير الحديث)) [٧]، ويعدُّ فيمن أخذ القراءة عن أبي هُرَيْرَة وابن عبـاس وعبدالبر بن عياش بن أبي ربيعة، وكان عالمًا بالعربية ومِـنْ أعلـم الناس بأنساب العرب، يظنُّون أنَّ مالك بن أنس أخَذ عِلْمَ الأنساب عنه، ورحَل الأعرج إلى الإسكندرية، ومات بهـا سـنة ١١٧ في أيَّـام هشام بـن عبـدالملك، قـال الزبيـدي: ((كان مـن أوَّل مَـن وضـع العربيَّة))[٨].

٧- الطبقات الكبير، ابن سعد، تحقيق علي محمد عمر، مكتبة الخانجي- القاهرة، ط١، ٢٠٠١م، ج ٧، ص ٢٧٩.

٨- طبقات النحويين واللغويين، أبو بكر الزبيدي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف - مصر، ط ٢، ١٣٩٢هـ - ١٩٧٣م، ص ٢٦.

(5)يحيى بن يعمر

٥٨- هو يَحْيى بن يَعْمُرَ اللَّيثيُّ، وكان مِن أهل البصـــرة، تابعيٌّ، قال الحاكمُ: ((فقيهٌ، أديب، نَحْوي مُـبَرَّز، سَـمِع ابـنَ عُمـر، وجابرًا، وأبا هريرة، وأخذ النَّحـو عـن أبي الأَسْـود))[٩]. وكان مـن الفُصَحاء، عالِمًا بالعربيَّة والحديث، وكان رجلاً شديدًا لا يُبالي؛ كَرِهَ الحجَّاجُ أنْ يُسـاكِنَه بـبلد، (وكان الحجَّـاجُ إذْ ذاك بواسـط)، فنَفـاه إلى[١٠] خُراسان، فلمَّا حضَـرَها، ولاَّه قتيبةُ بن مسـلمٍ القضـاءَ بهـا، فقضى في كثيرٍ من بلادها؛ كنيسابور، ومَـرْو، وهَـراة، وكان يَطلُـب الغريبَ في كلامه، قال محمَّد بن سلام: ((أخـبَرَني أُبَيٌّ أنَّ يَزيـدَ بـن المُهلَّـب كتـب إلى الحجَّـاج: "إنَّـا لَقِينـا العـدوَّ ففعلنـا وفعلنـا،

٩- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، جلال الدين السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية – لبنان، ج ٢، ص ٣٤٥.

١٠- في الأصل "فنفاه إليه خراسان"، وهو خطأ مطبعي.

واضْطُرِرْنا إلى عُرْعُرَةِ الجبل"، فقال الحجَّاج: ما لابن المهلِّب وهـذا الكلام؟ فقيل له: إنَّ يحيَ بن يَعْمُر عنده؛ فقال: ذاك إذن)). [11]

ومات يحيى بِخُراسان في أيَّام مروان بن محمد سنة ١٢٩.

٥٩- هذا، ولعلَّ يحيَ بن يعمر كما ذكَرْنا قبلُ قد هجَر النَّحو آخِرَ أيَّامه، ولَم يأخذه عنه أحدٌ من أهل خراسان؛ لأنَّنا لَم نجد في الطَّبقة الثانية من النُّحاة مَن كان مِن أهل خراسان.

(6)عبدالله بن أبي إسحاق

٦٠- هو عبدالله بن أبي إسحاق الحضرميُّ البصري، يُعدُّ من القُرَّاء، أخذ القراءةَ عن يحيى بن يعمر، ونَصْرِ بن عاصم، وقد عدَّه بعضُ الكُتَّاب من الطَّبقة التي أخذَتْ عن أبي الأسود، إلا أنَّ هذا لم يصحَّ، ولكنَّه أخَذ عن يحيى بن يعمر أيَّامَ مُقامِه بالبصرة،

١١- طبقات فحول الشعراء، محمد بن سلام الجمحي، قرأه وشرحه : أبو فهر محمود محمد شاكر ، دار المدني بجدة، الطبعة الثانية، ١٩٧٤، ج ١، ص ١٣، وفي الطبقات قصته مع الحجاج حين سأله : هل تراني ألحن؟ وهي سبب نفيه.

فلمَّا نُفِيَ يحيى إلى خراسان، وخَفِيَ عِلمُه، ظهَر ابنُ أبي إسحاق، وعلا أمرُه في أيَّام أهل الطبقة الأولى من النُّحاة، وأعانَه على ذلك عُلوُّ سِنِّه؛ فإنَّه مات ابنَ ثمانٍ وثمانين سنة ١١٧؛ أيْ: في السَّنة التي مات فيها الأعرج، ولكنَّا نعدُّه من كبار شيوخ الطَّبقة الثانية من النُّحاة، وهو أوَّل مَن مات من أهل هذه الطبقة من النُّحاة.

الطبقة الثانية من النحاة

٦١- شيوخ هذه الطَّبقة ثلاثة مُبَرَّزون: عبدالله بن أبي إسحاق، وقد مضَتْ ترجمتُه، وأبو عمرِو بنُ العلاء، وعيسى بنُ عمر الثقفي، ونكتفي بالترجمة لِهَذين العلَمَيْنْ دُون غيرِهِما مِمَّن أخذ النحو، ولَم يُبَرَّز فيه، ولَم يَعْلُ.

(1) أبو عمرو بن العلاء المازني التميمي

٦٢- اسمه زَبَّانُ بنُ عمَّارِ بنِ عبدالله، من بني مازنِ بن عُمر بن تميم، وُلِدَ بمكَّة سنة ٥٥ أو ٥٨، وسكَن البصرة، وكان

رفيق عبدالله بن أبي إسحاق، فتلقَّى النحو والقراءة معه عن يحيى بن يعمر، ونَصْرِ بن عاصم، وعلا كعبُه في القراءة والنحو، وعُدَّ من القُرَّاء السبعة، وكان كثيرَ الرحلة، فاستكثرَ من الشيوخ؛ أخذَ عن شيوخ مكَّة والمدينة والكوفةِ والبَصْرة، وأعانَهُ على البَرَاعة فيما سلَك سبيلَه من العلم رحلتُه وذَكاؤه وطول عمره، فإنَّه عُمِّرَ نحوًا من مائة سنةً - مات سنة ١٥٤ في خِلافة المنصور -..

قال يونسُ بن حبيب أبرعُ تلامذتِه: ((لو كان أحدٌ ينبغي أن يُؤخذ بقوله في كلِّ شيء، كان ينبغي أنْ يُؤخذ بقول أبي عمرِو بن العلاء كلِّه في العربيَّة، ولكن ليس من أحدٍ إلا وأنت آخِذٌ من قوله وتارِك إلاَّ النبِيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم)) [١٢]. وقال أبو عبيدة: ((أبو عمرٍو

١٢- نزهة الألباء، ص ٣١.. ويقول ابن سلام في طبقات فحول الشعراء ((وَسمعت يُونُس يَقُول لَو كَانَ أحد ينبغي أَن يُؤْخَذ بقوله كُله في شيء وَاحِد كَانَ ينبغي لقَوْل أَبي عَمْرو بن الْعَلاَء في الْعَرَبيَّة أَن يُؤْخَذ كُله وَلَكِن لَيْسَ أحد إِلَّا وَأَنت آخذ من قَوْله وتارك)) [ص ١٦] وهذا أقوى وأقرب، وابن سلام سمع هذا من ابن حبيب مباشرة، فهو أحرى أن يؤخذ بروايته، فثمة اختلاف كبير بين ((يؤخذ بقوله في كل شيء)) وبين ((يؤخذ بقوله كله في شيء واحد))، وهذا الأخير هو الذي يوافق نهاية الكلام ((كان ينبغي لقول أبي عمرو بن العلاء في العربية أن يؤخذ كله))، وفي مخطوطتين من =

أعلَمُ الناس بالقراءات والعربيَّة وأيَّامِ العـرب والشِّـعر))[١٣]، وكان مُحدِّثًا ثقةً: وثَّقه يحيى بنُ مَعـين وغـيرُه، قـالوا: "صَـدُوق حجَّـة في القراءة." وقال إبراهيم الحربيُّ: ((كان أهلُ العربيَّة كلُّهـم أصـحابَ أهواء، إلاَّ أربعة؛ فإنَّهم كانوا أصحابَ سُنَّة: أبو عمـرِو بـنُ العـلاء، والخليل بن أحمد، ويونسُ بن حبيبٍ البصـري، والأصـمعي)) [١٤].

قالوا: ((وكانت دَفاترُ أبي عمرٍو ملءَ بيته إلى السـقف، ثـم تنسَّـك فأحرَقَها)) [١٥].

=

المخطوطات التي اعتمدها السامرائي ((بقوله كله في شيء)) فلعله كان خطأ من بعض النساخ في قوله ((ينبغي أن يُؤخذ بقوله في كلِّ شيء)) فيكون أصلها ((بقـوله كلـه في شيء))، ويؤكد هـذا أن بعـض الروايـات فيهـا ((يؤخـذ بقـوله في شيء)) مـن غـير ((واحد))، والله أعلم.

١٣- سير أعلام النبلاء، الذهـبي، مجموعـة مـن المحققـين بـإشراف الشـيخ شـعيب الأرنؤوط، طبعة الرسالة، ط ٢، ١٤٠٢ هـ- ١٩٨٢م ، ج ٦، ص ٤٠٨.

١٤- نزهة الألباء، ص ٣٣.

١٥- سير أعلام النبلاء، ج ٦، ص ٤٠٨.

٦٣- وأخَذ النَّحوَ عن أبي عمرٍو الخليلُ بن أحمد، ويونسُ بن حبيب البصري، وأبو محمد اليزيديُّ، ومعاذُ بن مسلم الهرَّاء، وروى عنه الحروفَ "سيبَوَيْهِ."

(2)عيسى بن عمر الثقفي

٦٤- هو مولًى من مَوالِي خالد بن الوليد، نزلَ في ثقيفٍ، فنُسِبَ إليهم، وكان أحدَ المُحقِّقين لعلم العربيَّة، اكتسبَ الفَصاحة من ثقيف، ثم نزل البصرةَ، فأخذ النَّحو عن عبدالله بن أبي إسحاق، ولَم نَجِدْه أخذَ النَّحو عن أحدٍ من نُحاة الطَّبَقة الأولى، ولكنَّه برع وبُرِّز في عهد أبي عمرٍو، ومات قبْلَه بخمس سنوات - أيْ: سنة ١٤٩ في خِلافة المنصور - وعنه وعن أبي عمرٍو صدرَت الطبقةُ الثالثة من أهل العربيَّة، وذكر المُبَرِّد أنَّ عيسى أخَذ النحو عن أبي عمرِو بن العَلاء أيضًا. قال ابنُ الأنباريِّ: ((كان ثقةً عالِمًا بالعربيَّة والنحوِ والقراءة، وقراءتُه مشهورة))[١٦]. قال أبو عبيدٍ

١٦- نزهة الألباء، ص ٢٨.

القاسمُ بن سلام: ((كان من قُرَّاء البصـرة، وكان عالِمًا بالنَّحو، غـير أنَّه كان له اختيارٌ في القـراءة على مـذاهب العربيَّـة يُفـارق قـراءة العامَّة، ويستنكرُه الناس، وكان الغالب عليه حبُّ النصب إذا وجَد لذلك سبيلاً، منه: "حَمَّالـةَ الحطـب"، "الزانيـةَ والـزاني"، "والسـارقَ والسارقة"، "هنَّ أطهرَ لكم."))[١٧]

أقول: وهذا عجيبٌ من عيسـى بـن عُمـر، ولكنـه كان يتَقعَّـر في كلامه على فصاحته، فلا عجَب، ونوادرُه في ذلـك كثـيرة؛ كقـوله - لَمَّا ضربه يوسفُ بن عمر بنِ هبيرة في طلب ثِيابٍ استَوْدَعها عنـده خالدٌ بن عبدالله حين إمارته على العراق -: ((إن كانـت إلاَّ أُثَيَّابًـا في أُسَيْفاط قبَضَها عَشَّاروك))[١٨]، وكان عيسى ضريرًا.

٦٥- وأخَذ النَّحوَ عن عيسى بنِ عمر الخليـلُ بن أحمد، ولعلَّ سيبَوَيْهِ لَقِيَه وأخَذ عنه أيضًا.

١٧- غاية النهاية في طبقات القراء، ابن الجزري، دار الكتب العلمية – بيروت، ط ١، ٢٠٠٦م، ج١، ص ٥٤٠.

١٨- انظر القصة كاملة في نزهة الألباء، ص ٢٨.

الطبقة الثالثة

٦٦- أجَلُّ شيوخ هذه الطَّبَقة رَجُلان: أحَـدُهُما حَفِـظَ عِلم الأوائل من النُّحاة، وأخذه النَّاس عنه وهو يونسُ بـن حبيـب البصريُّ، والآخَر حَفِظَ علم الأوائل، وبرع في العربيَّة، وجدَّد علـم النَّحو بما أُوتِي من قوَّة العقل، وعُلُوِّ الذَّكاء، ومنه نبَع سيبَوَيْهِ، فسَقى النَّحْوَ حتَّى أخصَبَتْ أرضُه، ونَما نباتُه، وهو الخليلُ بن أحمد، شـيخُ الشُّيوخ جميعًا.

(1)يونس بن حبيب البصري

٦٧- وُلِدِ يونسُ سنة تسعين، وأخذ النَّحـوَ عـن شـيوخ الطَّبقة الثانية، فبَرَع وتفرَّد بمـذاهِبَ في النَّحـو والقيـاس، وعقـدَ حلقةً بالمسجد الجامع بالبصرة يَنْتابُها أهل العلم والأدَب، وفُصحاءُ الإعرابِ والبادية، وأكثرَ سيبَوَيْهِ في كتابه من الرِّواية عـن يُـونس، وكان مِن عُقَلاء الرِّجال، تَخرَّجَ عليه كثيرٌ مـن اللُّغـويِّين والنُّحـاة؛ كالأصمعيِّ، وعليِّ بن حمزة الكسائي، وأبي زكريا الفَـرَّاء، وكثـيرٌ مـن

أهل العلم في عصر الرشيد، وعُمِّر يونسُ ومات في خلافة هارون الرشيد سنة ١٨٣.

(2) الخليل بن أحمد الفراهيدي البصري

٦٨- قال النَّضرُ بن شُمَيل: ((أقام الخليلُ في خصِّ [لهُ][١٩] بالبصرة، لا يقدر على فَلْسَيْنْ، وتَلامِذتُه يَكْسبون بعِلمه الأموالَ))[٢٠]، وهذه حالُهُ في العلم أيضًا، فلولا الخليلُ لَم يكن سيبَوَيْهِ، فلمَّا كان الخليلُ وكان سيبَوَيْهِ، وأخَذ عِلمَه عنه وحَشَا به كتابه الجليل، طار اسمُ سيبَوَيْهِ في كلِّ مكان، وملأَ الدُّنيا، وانزَوى ذِكْرُ الخليل إلاَّ قليلاً، وأُهْمِلت كتبُه، وضاعَ أكثرُها، وقد كان الخليلُ من نَوابِغ الرجال وأفذاذ العرب، شَهِدَ له مُعاصروه بأنَّه كان

١٩- سقطت الكلمة من الأصل، والإضافة من سير أعلام النبلاء، وهكذا وردت – بالإضافة- في مصادر كثيرة، ووردت في "وفيات الأعيان" بلفظ مختلف قليلا ((في خص من أخصاص البصرة)).

٢٠- سير أعلام النبلاء، ج ٧، ص ٤٣٠.

آيةً في الذَّكاء، وكانوا يقولون: ((لَم يكن في العرب بعدَ الصحابة أذكى منه))[1].

((اجتمع الخليلُ وعبدالله بن المقفَّع ليلةً يتحدَّثان إلى الغداة، فلمَّا تفرَّقا قِيل للخليل: كيف رأيتَ ابن المقفَّع؟ فقال: [رأيتُ] [2] رجلاً رجلاً عِلمُه أكثرُ مِن عَقله، وقيل لابنِ المقفَّع: كيف رأيتَ الخليل؟ قال: "رأيتُ رجلاً عقله أكثر من عِلمه)). [3]

هذا مَع ما شَهِدَ به له الأوائلُ مِن سَعة العلم، والتبحُّر فيه، وليس أدلَّ على نُبوغ الخليل وعبقريَّته وتفرُّده من استِخراجه العَرُوضَ، وحَصْرِه في خمسة دوائر[4]، استخرجَ منها الخمسةَ عشر بحرًا

١- معجم الأدباء، ج ٣، ص ١٢٦٣.

٢- سقطت الكلمة من الأصل، وصوابها من وفيات الأعيان.

٣- وفيات الأعيان، ابن خلكان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر –بيروت، ١٣٩٧هـ – ١٩٧٧م، ج٢، ص ٢٤٦.

٤- الدَّائرة في عِلم العَروض هي التي حصَرَ الخليلُ بها الشُّطور؛ لأنَّه وضَعَها على شكل شكل الدائرة التي هي الحَلْقة، وهي خمسُ دوائر: الأولى فيها ثلاثة أبواب: الطَّويل والمديد والبسيط، والثانية فيها بابان: الوافِرُ والكامل، والثالثة فيها ثلاثة أبواب: =

المعروفة، وكان الخليلُ قد تعلَّم الإيقاع والنَّغم، فمِنهما أحدَثَ عِلمَ العروض بما أُوتِيَ من صَفاء النَّفْس، وسُرعة الخاطر، ودِقَّة الفهم، وقوَّة الضبط، ولَم يستَطِع أحدٌ إلى يومِ الناس هذا أنْ يَزِيد على ما أتى به الخليلُ بَحَرًا واحدًا، إلاَّ الأخفش؛ فإنَّه اهتدى إلى بحرٍ واحد هو الذي يُسمُّونه الخبب.

٦٩- ولولا ما ضاعَ مِن كتب الخليل، لعرَفْنا كيف نردُّ كتابَ سيبَوَيْهِ إلى الأصل الذي أخَذ عنه من الخليل، ونحن لا نشكُّ في أنَّ أوَّل كتاب وخيره وصَل إلينا من كتب المتقدِّمين في النَّحو هو "كتاب سيبَوَيْهِ"؛ إذْ هو الكتاب الذي وُضِعَ على قواعِدَ معقودةٍ للكتاب كلِّه، وأرجَحُ الرَّأي عندنا أنَّ الذي عقَد النَّحو هذا العقدَ الذي نراه في "الكتاب" ليس هو سيبَوَيْهِ، بل هو الخليلُ بن أحمد الذي عقَد علمَ العروض هذا العَقْد الذي لَم يُنقَض، وقد رأى

=

الْهَزَج والرَّجَز والرَّمَل، والرابعة فيها ستَّة أبواب: السَّريع والمُنسَرِح، والخفيف، والمضارع، والمقتضب، والمُجتَثُّ، والدائرة الخامسة فيها المتقارِب حَسْب. (شاكر)

الخليلُ في سيبَوَيْهِ رجلاً مُحُكَم العقل، فاستَصْفاه بعِلْمه وأدَبِه، ومنَحَه وقْتَه وراحتَه، فكان الخليلُ يقول له حين يزورُه: "مرحبًا بزائرٍ لا يُمَلُّ"، قال أبو عمرٍو المخزوميُّ - وكان كثيرَ المُجالسة للخليل -: "ما سمعتُ الخليلَ يقولُها لأحدٍ إلاَّ لسيبَوَيْهِ." ولا شكَّ أنَّ سيبَوَيْهِ كان في ذلك الوقتِ شابًّا لَم تُنهِكه الأيامُ والمصائب، وكان الخليلُ قد أسنَّ، فأراد أنْ يُلقيَ علمه إلى مَن يَزْكو عنده ويَنْمو، فألقاه إلى سيبَوَيْهِ، فأخرج منه "الكتاب" [1]، وهذه الكلمةُ لا تَكْفي

١- وقد رَوى ياقوت في "مُعجَمِه" قال: "قيل ليونس بن حبيب: إنَّ سيبَوَيْهِ قد ألَّف كتابًا في أَلْف ورقة مِن علم الخليل، قال يونس: ومتَى سمع سيبَوَيْهِ هذا كلَّه من الخليل؟ جيئوني بكتابه، فلمَّا نظَر فيه رأى كلَّ ما حكى (عنه) "يعني: ما حَكى سيبَوَيْهِ عن يونس"، فقال: يَجَب أنْ يكون هذا الرَّجلُ قد صدَق عن الخليل في جميع ما حكاه، كما صدَق فيما حكاه عنِّي"، فهنا ترى الدليل على أنَّ أكثر كتاب سيبَوَيْهِ من عِلم الخليل وأدبِه، وهذا هو المعقول؛ لأنَّ سيبَوَيْهِ لَم يُعمَّرْ أكثر من أربعين سنةً، وقد جَمَع في كتابه هذا أصولَ النحو كلَّها، إلاَّ ما ندرَ من شيءٍ، وهذا عملٌ لا يَكادُ يُوفَّقُ إليه رجلٌ وحدَه، إلاَّ مستعينًا برجلٍ قد امتلأ عِلمًا، أو جماعةٍ قد أفرَغوا أنفسهم لِهذا وحدَه، والذي يدلُّ على أنَّ هذا الكتاب من عِلم الخليل، لا من عِلم جماعة: أنَّ الخليل كان إذا تكلَّم في شيءٍ من النحو مِمَّا استنبطَه هو لم يفهمْ ما يقول أحدٌ من نُحاة =

لتحقيق القول في أمر الخليل وكتاب سيبَوَيْهِ، فنُؤجِّلها إلى أوسعَ مِن هذه وأَبْرَح.

ونحن لا نعلمُ كثيرًا عن مَنشَأ الخليل إلاَّ أنَّه وُلِدَ بالبصرة سنة مائة من الهجرة، وعُمِّر فبلغ أربعًا وسبعين سنةً، والذي يُفهم من

=

عصره! وهذا الأخفش النحويُّ الجليل البارع يُحدِّث فيقول: "حضَرْتُ مجلس الخليل، فجاءه سيبَوَيْهِ، فسأله مسألةً، وفسَّرَها له الخليل، فلم أفهمْ ما قالا، فقمتُ وجلست له في الطريق، فقلت: "جعَلنِي الله فداءك! سألتَ الخليل عن مسألةٍ، فلم أفهمْ ما ردَّ عليك، ففهِّمْنِيه فأخبَرَنِي بها، فلم تقعْ لي ولا فَهِمتُها، فقلتُ له: لا تتوهَّمْ أنِّي أسألُكَ إعناتًا، فإنِّي لم أفهَمْها، ولَم تَقعْ لي، فقال لي: ويلك! ومتَى توهَّمتَ أنِّي أتوهَّم أنَّك تُعنِّتُنِي؟ ثُم زجَرَني وتركَنِي، ومضى."

فالخليل كما ترى هو الذي وضع للنَّحو أبوابه وأقسامَه واصطلاحه الَّذي نراه في كتاب سيبَوَيْهِ؛ فإنَّ سيبَوَيْهِ تلميذَ الخليل لَم يأخُذ النَّحو إلاَّ عنه، وزاد على ذلك أنَّ الخليل منَحَه ما وضَع للنَّحو من أبوابٍ وأقسام واصطلاح، حتَّى إنَّ مُعاصِريه الذين أخَذوا النَّحو عن الخليل لَم يفهموا ما كان يدور بينه وبين الخليل من الكلام في النَّحو، وهذا بابٌ عظيم في تحقيق كتاب سيبَوَيْهِ، نستَوفِيه بعدُ في كتابنا عن العربيَّة إن شاء الله تعالى. (شاكر)

قلت (العمري): انظر ما سلف في الفقرة ١٨.

تراجم هذا الإمام أنَّه تلقَّى العلم صغيرًا، وانقطع له، وعُنِي به، فلم يُبالِ بغيره، ولَم يَطلب الرِّزق بعِلْمه؛ لِما كان من وَرَعِه، وطولِ صبره على المَكاره، وشدَّة إبائه وتَعفُّفه؛ فكان يَمْتنعُ على الأمراء والحكَّام، ولا يَبْتذِل نفسه بالتردُّد عليهم [1]، فكان ذلك سببًا في انقطاعه

١- كان للخليل - رحمه الله - راتبٌ على سليمانَ بنِ حبيب بن المهَلَّب بن أبي صُفْرة، وكان والِيَ فارس والأهْوَاز، فكتب سليمانُ إلى الخليل يستَدعِيه، فأجابه الخليل:

أَبْلِغْ سُلَيْمَانَ أَنِّي عَنْهُ فِي سَعَةٍ ... وَفِي غِنًى غَيْرُ أَنِّي لَسْتُ ذَا مَالِ

شُحًّا بِنَفْسِيَ.. إِنِّي لاَ أَرَى أَحَدًا ... يَمُوتُ هَزْلاً، وَلاَ يَبْقَى عَلَى حَالِ

الرِّزْقُ عَنْ قَدَرٍ؛ لاَ الضَّعْفُ يَنْقُصُهُ ... وَلاَ يَزِيدُكَ فِيهِ حَوْلُ مُحْتَالِ

وَالفَقْرُ فِي النَّفْسِ لاَ فِي الْمَالِ نَعْرِفُهُ ... وَمِثْلُ ذَاكَ الغِنَى فِي النَّفْسِ لاَ الْمَالِ

فقطع عنه سليمانُ راتِبَه، فقال الخليل:

إِنَّ الَّذِي شَقَّ فَمِي ضَامِنٌ ... لِلرِّزْقِ حَتَّى يَتَوَفَّانِي

حَرَمْتَنِي مَالاً قَلِيلاً فَمَا ... زَادَكَ فِي مَالِكَ حِرْمَانِي

فبلغَت الأبياتُ سُليمان، فكتب إلى الخليل يَعتذر إليه، وأضعفَ له راتِبَه. (شاكر)

للعلم، والتبحُّر فيه، والتوسُّع في فُروعه مدَّةً طويلة من حياته، حتَّى نبغَ وفاق أهل عصره عِلمًا وأدبًا ووَرعًا وخُلقًا [1]، وصَفَه مَن رآه فقال: ((كان الخليلُ رجلاً صالِحًا عاقلاً، حليمًا وَقورًا))، وقال النَّضرُ بن شُمَيل: ((سمعتُ الخليلَ يقول: "إنِّي لأُغلق عليَّ بابي، فما يُجاوِزُه هَمِّي)) [2]، وهذا هو خُلق العلم؛ فتدبَّر هذه الكلمة تَعْرِفْ كيف نبَغ الخليلُ وبرَع، ثُم تدبَّر هذه الكلمة الحكيمةَ قال: ((لا يَعلم الإنسانُ خَطأ مُعلِّمه حتَّى يُجالِسَ غيرَه)) [3].

١- من قرأ هذا الكلام الذي أورده أبو فهر عن الخليل - رحمهما الله- وتأمله =رأى أن بين الرجلين تشابها كبيرا في أشياء عدة، منها الصلاح والوقار والانقطاع إلى العلم منذ الصغر وعدم الاهتمام بشيء غيره، والامتناع على الأمراء والحكام، فكأنما كان الشيخ رحمه الله وهو في الرابعة والعشرين يترجم لنفسه بعد عقود.. فلو شئت أن تصفه ما زدت على ما أتى به في وصف الخليل وحاله، وقد أشار العلامة محمود محمد الطناحي إلى هذا في بعض ما كتب عن أبي فهر.. رحمهم الله جميعا.

٢- وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٢٤٥.

٣- وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٢٤٥.

الطبقة الرابعة

٧٠- لفَّ هذه الطبقـةَ كلَّهـا تحـت جناحَيْـه "النَّســرُ النَّحْويُّ" [١] سيبَوَيْهِ، شيخُ النُّحاة في عصره وما بعدَ عصرِه، والبحـر الذي أمدَّ عُلوم العربيَّة حتَّى زخرَتْ وتَلاطمَت، قال الجاحظُ: ((لَم يكتُب النَّاسُ في النَّحو كتابًا مثله، وجميعُ كتب النَّـاس في النَّحـو عِيالٌ عليه))[٢].

٧١- كان أوَّل أمرِ سيبَوَيْهِ في طلب العلـم أنَّـه كان يطلُب علم الآثار والفقه، ولَم تكنْ له عنايـةٌ بـالنَّحو، ولعـلَّ

١- النسر من لئام الطير لأنه يعيش على الجيف، كما وصفه الشيخ رحمه الله من بعد، ووصفه لسيبَوَيْهِ بهذا إنما كان جريا على سنن الأدباء من القـديم إلى يومنـا هـذا، ولا يمكن أن يقصد به ما يحمله النسر من الخسة والدناءة في الهمة، وعامل السـن يجـيز هذا، فإنه لما وقف على هذه الحقيقة من بعدٌ لم يصف عظيما بالنسر أبدا، وأزعم أنـه لو أعاد -رحمه الله- النظر في المقدمة لنشرها لسماه "العقاب" أو أي اسم يليق بمقام سيبَوَيْهِ، ولترك وصفه بالنسر.. والله أعلم.

٢- إنباه الرواة على أنباه النحاة، القفطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي – مؤسسة الكتب الثقافية، ط ١، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م، ج ٢، ص ٣٥١. وفيه ((وجميع كتب الناس عليه عيال)) وهو كذلك في وفيات الأعيان، فلعل تقديم "عيال" هنا خطأ مطبعي.

ذلك كان وسنُّه إذْ ذاك ما بين العشرين إلى الثَّلاثين، وكان يطلب الحديث من حَمَّاد بن سلمة بن دِينار البصريِّ المُحدِّث الفقيه النَّحوي، فقال حمادٌ: قال رسولُ الله - صلَّى الله عليه وسلَّم -: ((ما مِنْ أحدٍ من أصحابي إلاَّ مَن لو شِئتُ لأخذتُ عليه عيبًا[1]، ليس أبا الدَّرداء))، فقال سيبَوَيْهِ: ((ليس أبو الدَّرداء))، فقال له حَمَّاد: "لحنْتَ يا سيبَوَيْهِ؛ ليس أبا الدرداء"، فقال: "لا جرم، لأطلُبَنَّ علمًا لا تُلحِّنني فيه أبدًا"، فطلبَ النَّحو، ولزم الخليلَ بن أحمد.

٧٢- وكانت في لسان سيبَوَيْهِ لكنةٌ؛ وذلك لأنَّ أصله من البيضاء بأرض فارس، ونشأ بالبصرة، ولَم يُعمَّر أكثر من أربعين، وانتقل في آخِر أيَّامه إلى الكوفة؛ لِمُناظرة الكسائيِّ - وأمرُها مشهور - ثم رحَل إلى شيراز، ومات بها سنة ١٨٠ تقريبًا، ونقتصرُ

١- في "معجم الأدباء": ((لأخَذتُ عنه عِلمًا))، ومعنى الحديث على هذه الصُّورة فاسدٌ باطلٌ، وقد بَحَثْنا عن هذا الحديث فلم نَجِدْه، وتوهَّمْنا أن الصواب: ((لأخذت عليه عَيْبًا))؛ ليستقيم المعنَى، وقد ورد مثلُ هذا الحديث في المعنى بشأن أَبِي عُبيدة بنِ الجَرَّاح، وفيه هذا اللَّفظ. (شاكر)

على هذا مِن ترجمة هذا الإمام الجليل؛ فقد مضى ذِكرُه في ترجمة الخليل، وليس في الوقت سعَة.

النحو في الكوفة

٧٣- رأيتَ فيما مضى أنَّ النُّحاة جميعًا إنَّما نَشأوا بالبصرة، وكَثُرُوا فيها وكانوا أئمَّة العربية في زمانهم، وما نشأ النَّحوُ في الكوفة -وكان مذهبًا ضعيفًا- إلاَّ في أيَّام الخليل بن أحمد؛ وذلك لأنَّ البصرة أقدَمُ بناءً من الكوفة، وكان بها من صفوة الناس وأذكيائهم وعُلَمائهم من لَم يكن مثلهم بالكوفة؛ ولذلك تأخَّر ظهورُ علم النَّحو بها مدَّة طويلة.

٧٤- واعلم أنَّ الخِلاف المشهور بين الكوفيِّين والبصريين لم يُحقَّق بعدُ تحقيقًا وافيًا شافيًا، وليس يمكن أن يُحدَّد في كلمةٍ قصيرة موجزة كهذه؛ فنَكْتفي بالإشارة إلى وجود هذا الخِلاف ونشأته، وننتقل إلى ذِكْر الطَّبقة الأولى والثانية من علماء الكوفة، ونختمُ الكلام بهذا، والله المستعان.

الطبقة الأولى من الكوفيين

٧٥- شيخُ هذه الطبقة من أهل الكوفة هو "محمد بن الحسن بن أبي سارة" الملقَّب بالرُّؤاسي؛ لعِظَم رأسه، كان في زمن

الخليل بن أحمد، وزعموا أنَّه أوَّل مَن وضع من الكوفيِّين كتابًا في النحو، وزعموا أنه قال: "بَعث إليَّ الخليل يطلب كتابي، فبعثت به إليه، فقرأه ووضَع كتابه"، وزعموا أنَّ كلَّ ما في كتاب سيبَوَيْهِ من قوله "قال الكوفِيُّ"، فإنَّما يعني به الرؤاسيَّ؛ ولكن ممَّا لا شكَّ فيه أنَّ الرُّؤاسيَّ كان إمامَ أهل الكوفة في النحو، وعلى يديه نشَأ الكسائيُّ والفَرَّاء، شيخَا نُحَاةِ الكوفة بعده، ولا شكَّ أيضًا في أنَّ الرؤاسي كان ضعيفًا لا خطر له في النحو، ولولا أنَّ الكسائي والفرَّاء انتسَبا إليه لَمَا عُرِف ولا أُبِهَ به، وستعلم بعدُ أنَّ الكسائي هو الذي جعل للكوفة نَحْوًا امتازت به عن أُختِها البصرة.

الطبقة الثانية:

٧٦- إمام هذه الطبقة الكِسَائِيّ، وتَلاه الفرَّاء تلميذُه ورفيقه، والكسائيُّ هو أبو الحسن عليُّ بن حمزةَ بنِ عبدالله بن عثمان من أصلٍ فارسي، وكان ولاؤه في بني أسد، وتعلَّمَ الكسائيُّ النَّحوَ وقد أسَنَّ، وكان أحدَ القرَّاء الذين عُدُّوا بعدُ في القرَّاء السبعة، وأخذ الكسائيُّ النحوَ واللُّغة عن معاذٍ الهرَّاء والرُّؤاسي، ثُم نهضَتْ هِمتُه به إلى الرحلة، فنَزَل البصرة ، ولقي الخليلَ بن أحمد،

وجلس في حلقته ولَزِمَه مدَّة، ثم سأل الخليلَ من أين أخـذ عِلمَـه، فقال له: مِن بوادي الحجاز، ونَجْد، وتهامة - وهـم أهـل الفصـاحة والبيان - فخرَج، وأخـذ مـن الأعـراب عِلمًـا كثـيرًا، ثـم عاد إلى البصـرة ليرى الخليل والنُّحاة بها، فوجَد الخليلَ قـد مـات - رحمـه الله - وجلس مجلسَه يونسُ بن حبيب، فجرَتْ بينهما مسائلُ أقرَّ له يونسُ فيها، وصدَّرَه في موضعه، فـكان هـذا ابتـداءَ ذُيـوع أمـرِه في النَّحو، ثم رجَع إلى الكوفة، ولقي بها رُفَقاءه، فتتلمَذُوا له.

٧٧- واعتنى الكسائيُّ بكتاب سيبَوَيْهِ، فقرَأه، وصحَّحه على أصله، واستفاد منه، وخالَف سيبَوَيْهِ في مسائل كانت هي السَّببَ في الخِلاف الكبير الذي وقع بين البصـريِّين والكوفيين في تلك العداوة الشَّديدة التي حَمَّلها الكوفيُّون للبصـريِّين، ولـولا رحلةُ الكسائيِّ بإرشاد الخليل بن أحمد، وكتاب سيبَوَيْهِ، لَبَقِيَ النَّحوُ في الكوفة (رؤاسيًّا) ضعيفًا، لا قِبَلَ له بالبقاء مع نحو البصرة.

٧٨- ومات الكسائيُّ سنة ١٩٧ بـالريِّ في عهـد هارون الرَّشيد، وكان يعودُه في مرضه؛ لأنَّه كان مُؤدِّبَ ولدَيْه الأمـين والمأمون.

****

٧٩- هذا، وكنَّا نودُّ أنْ نَسْتقصي بقيَّة الطبقات من علماء الكوفة النحويِّين ثم نُتبِعُ ذلك بالكلام عن أسباب الخلاف بين المذهبين، وكيف اختلط المذهبان بعد ذلك، ومَن أوَّلُ من جَمَع بين المذهبين، لكنا نعتذر عن هذا، وعن الإيجاز الذي اضْطُرِرنا إليه في الكتابة عن أهل الطبقات. والله الموفِّق لإتمام ذلك وإخراجه على أكمل وجهٍ في كتابنا عن العربيَّة إن شاء الله[1]، وله الأمر من قبل ومن بعد.

١- انظر ما سلف، التعليق (١) على الفقرة ١٨.

المصادر والمراجع

- أخبار النحويين البصريين، أبو سعيد السيرافي، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي وطه محمد الزيني، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده- مصر، ط١، ١٣٧٤هـ- ١٩٥٥م.
- الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، تحقيق إحسان عباس وإبراهيم السعافين وبكر عباس، دار صادر – بيروت، ط٣، ١٤٢٨هـ – ٢٠٠٨م.
- إنباه الرواة على أنباه النحاة، القفطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي – مؤسسة الكتب الثقافية، ط ١، ١٤٠٦ هـ – ١٩٨٦م.
- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، جلال الدين السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية – لبنان.
- الخصائص، أبو الفتح بن جِنِّي، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتب المصرية – المكتبة العلمية، ١٩٥٢م.

- سير أعلام النبلاء، الذهبي، مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرنؤوط، طبعة الرسالة، ط ٢، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢م.
- الطبقات الكبير، ابن سعد، تحقيق علي محمد عمر، مكتبة الخانجي- القاهرة، ط١، ٢٠٠١م، ج ٧.
- طبقات النحويين واللغويين، أبو بكر الزبيدي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف - مصر، ط ٢، ١٣٩٢هـ - ١٩٧٣م.
- طبقات فحول الشعراء، محمد بن سلام الجمحي، قرأه وشرحه : أبو فهر محمود محمد شاكر، دار المدني بجدة، الطبعة الثانية، ١٩٧٤.
- غاية النهاية في طبقات القراء، ابن الجزري، دار الكتب العلمية – بيروت، ط ١، ٢٠٠٦م.
- معجم الأدباء، ياقوت الحموي، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، ط ١- ١٩٩٣.

نزهة الألباء في طبقات الأدباء، ابن الأنباري، تحقيق إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار -الأردن، ط ٣، ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م.

- وفيات الأعيان، ابن خلكان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر –بيروت، ١٣٩٧هـ- ١٩٧٧م، ج٢، ص ٢٤٦.

فهرس المواضيع

تصدير ٢

نشأة اللغة ١٠

اللغة والإعراب وعلم النحو ٢٥

سبب وضع العربية ٣٦

أبو الأسود الدُّؤَلِي ٥٢

الطبقة الأولى ٥٥

(1)عنبسة بن معدان ٥٥

(2)ميمون الأقرن ٥٦

(3)نصر بن عاصم ٥٦

(4)عبدالرحمن بن هرمز ٥٨

(5)يحيى بن يعمر ٥٩

(6)عبدالله بن أبي إسحاق ٦٠

الطبقة الثانية من النحاة ٦١

(1) أبو عمرو بن العلاء المازني التميمي ٦١

(2)عيسى بن عمر الثقفي ٦٤
الطبقة الثالثة ٦٧
(1)يونس بن حبيب البصري ٦٧
(2)الخليل بن أحمد الفراهيدي البصري..... ٦٨
الطبقة الرابعة ٧٥
النحو في الكوفة ٧٨
الطبقة الأولى من الكوفيين..... ٧٨
الطبقة الثانية: ٧٩
المصادر والمراجع ٨٢
فهرس المواضيع ٨٥